# دراسات فى
# تاريخ الدولة العثمانية

١ - الدولة العثمانية والمغرب العربى
- الجزائر تحت الحكم العثمانى
- ليبيا " طرابلس الغرب خلال الحكم العثمانى "
- تونس تحت الحكم العثمانى
- العثمانيون ومراكش
٢ - موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية
٣ - الإدراسة فى المخلاف السليمانى وعسير

دكتور
عبد المنعم إبراهيم الجميعى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ورئيس قسم التاريخ
بفرع جامعة القاهرة بالفيوم

# الدولة العثمانية والمغرب العربى

## مقدمـــة

-----

لا شك أنه يهم كل مواطن عربى أن يلم بأحوال أى جزء مـــن وطنـــه الكبير ، وأن يتعرف على أحوال مواطنيه ، وظروفهم السياسية والاقتصاديـــة والاجتماعية.

وعلى الرغم من أن لبلاد المغرب العربى منزلة خاصة فـــى القلـــوب نظرا لأنهم أحفاد المجاهدين الأوائل الذين لهم ماض عريق ، ودور فعال فى أحداث العالم الإسلامى فإن الكتابة فى تاريخ المغرب العربى خلال الحكـــم العثمانى لا تزال جد قليلة خاصة فى المراكز العلمية بالمشرق العربى . فـلا تزال الجامعات ومراكز البحث الأساسية بها لا تولى تـــاريخ هـــذه البـــلاد الاهتمام الذى يستحقه رغم أهميته فى مسار السياق التاريخى للعالم العربى .

حقيقة أن الفتح العربى لشمال إفريقية فى القرن السابع الميـــلادى قـــد حقق الوحدة السياسية لهذه المنطقة لأول مرة فى تاريخها إلا أن هذه البـــلاد تعرضت للعديد من المخاطر خاصة من إسبانيا المجاورة التى كان يســـاندها فى ذلك فرسان القديس يوحنا لدرجة أن الإسبان استطاعوا الســـيطرة علـــى النقاط الرئيسية من سواحل المغرب الأوسط إلى أن تدخل العثمانيون لإنقـــاذ هذه البلاد ووضعوا حدا للتدخل الاسبانى فيها .

قد يتساءل البعض عن أصل الأتراك العثمانيين والسبب الذى دفعهم لمد سيطرتهم على بلدان المغرب العربى ؟

الواقع أن الروايات تختلف حول أصل الأتراك العثمانيين ، وإن كـــان العديد من المؤرخين يرجع نسبهم إلى إحدى قبائل "الغز" التى كانت تقطـــن أواسط آسيا ثم نزحت تحت الضغـــط المغولـــى صـــوب آســـيا الصغـــرى والأناضول فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى . وقد استجاب

السلطان "علاء الدين" لطلب هذه القبيلة بمنحـــها مكانـا تستطيع [illegible] والاستقرار فيه فأقطعها عدة أقاليم ومدن ، وصار يعتمد عليها فى حروبه [illegible] وظلت هذه القبيلة بقيادة "أرطغرل" فى خدمة السلطان علاء الديـــن ٠ ولمـــا توفى "أرطغرل" تولى ابنه الأكبر عثمان مكانه وهو الذى تنسب إليه الدولـــة العثمانية ٠

وقد نهج عثمان نهج والده فى الجهاد وذاع صيته ، ثم انفتـــح المجـــال أمامه بعد سقوط دولة سلاجقة الروم ، ووفاة السلطان علاء الدين فاستقل بما تحت يده من بلاد واتخذ من مدينة "ينى شهر" عاصمة لـــه ، ودعـــا نفســـه بسلطان العثمانيين ٠

وهكذا بدأت الدولة العثمانية على يديه ، واعتنق العثمانيون فى عـــهده الإسلام، وأصبح عقيدتهم الدينية الرسمية ٠ وبعد وفاة عثمـــان فـــى عـــام ١٣٢٦م واصل ابنه "أورخان" ومن جاء بعده السير على سياسته ٠ واستطاع العثمانيون أن يملأوا التاريخ أحداثا ، ومرت عليهم مظـــاهر عديـــدة مـــن الحضارات ، وأصبحت إمبراطوريتهم مترامية الأطراف حيث امتدت أقاليمها وولاياتها فى آسيا وأوربا وأفريقيا وأصبحت أكبر دولة إســـلامية يشـــهدها التاريخ فكانت حدودها تمتد شمالا إلى بلاد المجر فى أوربا وتشمل أراضيها كلا من بلاد اليونان والبوسنة والهرسك، والجبل الأسود ، وألبانيا ، وبلغاريا، والمجر والبغدان وتمتد شرقا من حدود ولاية جورجيا إلى حدود داغســـتان وما يلى ذلك من الشرق والجنوب والغرب أرمنيا والأنـــاضول ومـــا بيـــن النهرين ، وبلاد العـــرب وسوريـــة ومصر والسودان وبرقـــة وطرابلـــس وتونس ٠

وفى تاريخ الدولة العثمانية الكثير من الدروس سواء أكان ذلـــك فـــى مجال الحرب أو فى مجال السلم ٠ وقد توالى على عرشها ســـته وثلاثـــون سلطانا كان منهم من لا يأتى الدهر بمثلهم إلا على فترات من الزمن ، وكان

منهم بين بين ، كما كان منهم من لا يصلح مطلقا لتولى هذا المنصب الخطير الذى وصل إليه عن طريق الوراثة مما ساعد فى النهاية على دك أركان هذه الدولة ، وظلت الفتوحات العثمانية تتجه غربا حتى عهد السلطان "سليم الأول" (١٥١٢-١٥٢٠م) الذى اتجهت الفتوحات العثمانية فى عهده نحو الشرق حيث تمكن من مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية ٠

وفى عهد السلطان "سليمان القانونى" (١٥٢٠-١٥٦٦م) وصلت حدود الدولة إلى معظم بلدان المغرب العربى - عدا مراكش - بهدف إنقاذه من هجمات الإسبان وفرسان القديس يوحنا الذين قاموا بملاحقة المسلمين هناك ، واستطاعوا وقف هجماتهم ، وتخليص هذه البلاد من سطوتهم ٠

والجدير بالذكر أن فتوحات العثمانيين للشام ومصر جاءت من منطلق التنافس وسوء العلاقات بينهم وبين المماليك ، أما بالنسبة لبلدان المغرب العربى وبالذات الجزائر وليبيا حدثت بناء على طلب الأهالى الذين طالبوا الدولة العثمانية : بتخليصهم من الهجمات الصليبية ضد بلادهم وقد تم لهم ما أرادوا وتحولت مسئولية الجهاد هناك من الجهود الفردية للمجاهدين إلى مسئولية أكبر دولة إسلامية وقتذاك لديها العديد من القوات البرية التى تتميز بالنظام والانضباط هذا بالإضافة إلى أسطول قوى بذلت الجهود العديدة لتشييده لمواجهة أعداء الإسلام والمسلمين ٠

ويعد الجزائر أول قطر عربى يدخله العثمانيون ، ويتخذون منه قاعدة لمد سيطرتهم على طرابلس الغرب (ليبيا) وتونس فى محاولة منهم للحفاظ على إسلام وعروبة سكان شمال أفريقيا من أخطار الغزو الاستعمارى الأوربى وتكوين جبهة إسلامية لمواجهة أخطار الزحف الصليبى ٠ أما بالنسبة لمراكش فإنها لم تدخل تحت السيادة العثمانية نتيجة لتمسك الأشراف

السعديين بإبعاد النفوذ العثمانى عن بلادهم ، ولقدرتهم فى المحافظة على استقلال بلادهم من أطماع الإسبان حتى أوائل القرن العشرين ٠

وقد نجحت الدولة العثمانية فى المحافظة على المقومات الأساسية لبلدان شمال أفريقيا ، وهى الدين الإسلامى ، واللغة والثقافة العربية والاسلامية وإبعاد الزحف الاستعمارى عن هذه المناطق لفترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون وتبعا لذلك فقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة فصول تناول الفصل الأول المعنون "الجزائر تحت الحكم العثمانى" جهاد الجزائريين لإنقاذ بلادهم من الهجمة الصليبية ، وطلبهم النجدة من أكبر دولة إسلامية فى ذلك الوقت وهى الدولة العثمانية واستجابة السلطان سليم الأول العثمانى لطلبهم ، ودخول الجزائر تحت الحكم العثمانى ، والارتكاز عليهم لتحرير باقى مدن وبلدان المغرب العربى من أيدى الإسبان ، كما تناول هذا الفصل نظام الحكم العثمانى فى الجزائر وأحوال هذه البلاد الاقتصادية والثقافية خلال هذه الفترة ٠

وتناول الفصل الثانى المعنون "ليبيا فى ظلال الحكم العثمانى" استنجاد أهل طرابلس بالسلطة العثمانية لحمايتهم من أخطار الهجمة الصليبية الشرشة ضد بلادهم ، وموافقة السلطان سليمان القانونى على طلبهم ، ونجاح القوات العثمانية فى طرد فرسان القديس يوحنا من ليبيا وجعلها قاعدة للأسطول العثمانى فى البحر المتوسط ، كما تناول هذا الفصل أحوال ليبيا الاقتصادية ومظاهر الحياة الثقافية خلال فترة الحكم العثمانى ٠

وتناول الفصل الثالث المعنون "تونس تحت الحكم العثمانى "الصراع المرير الذى دار بين العثمانيين والإمبراطورية الرومانية المقدسه والذى كان يحكم باسمها وتحت حمايتها "الحسن الحفصى" حتى تمكنت الدولة العثمانية إعلان تبعية تونس لها كما تناول هذا الفصل أحوال تونس الاقتصادية والاجتماعية خلال فترة الحكم العثمانى لها ٠

أما الفصل الرابع المعنون "العثمانيون ومراكش" فقد تناول أسباب بقاء مراكش خارج السيطرة العثمانية وتمكنها من الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية بعيدا عن العثمانيين والإسبان أما الخاتمة فقد شملت أهم نتائج هذه الدراسة .

وأخيرا آمل أن اكون قد وفقت في إلقاء الضوء على تاريخ المغرب العربي الحديث في ظل الحكم العثماني ، وأن أكون قد تمكنت من إضافة شيء جديد للمكتبة التاريخية .

**والله ولى التوفيق ،،**

**أ.د. عبد المنعم الجميعى**

**الإسكندرية - زهراء العجمى**

**سبتمبر ٢٠٠١**

## الفصل الأول

# الجزائر تحت الحكم العثمانى

---------

بعد سقوط الأندلس فى يد القوى الصليبية ، حاول البرتغاليون والإسبان السيطرة على شمالى أفريقيا ، وطمس عروبة أهالى هذه البلاد وتنصيرهم ·

وقد وقف أهالى هذه المناطق لهذه المحاولات بالمرصاد وقاموا بمجاهدة البرتغاليين والإسبان ، وكان على رأس هؤلاء المجاهدين "عروج" وأخوه "خير الدين بربروسا" ، و"حسن باشا" و"صالح ريس" وغيرهم فقد كانوا مثلا أعلى فى البطولة والفداء فى المعارك التى خاضوها ضد التكتلات الصليبية التى أرادت النيل من بلادهم لدرجة أن شخصية مثل "عروج" ذاع اسمها بين الأهالى بعد أن حقق أمانيهم فى استرداد الموانى التى نجح الإسبان فى الاستيلاء عليها ، كما استطاع أن يؤسس حكومة عسكرية تحت قيادته إنضم إليها العديد من القبائل وسكان المدن وتمكن من خلالها الاستيلاء على أقاليم الجزائر الواحد بعد الآخر ، يضاف إلى ذلك أنه قام بتوحيد جهود مراكب الجهاد التى كانت تجاهد القوى الصليبية فى البحر المتوسط ·

ونتيجة لاستشهاد عروج فى إحدى المعارك مع الإسبان خلال حصار مدينة تلمسان فقد تولى شقيقه "خير الدين بربروسا" Barberoussa أى صاحب اللحية الحمراء أمور الجهاد · ونتيجة لضعف موقف خير الدين بعد مقتل أخيه خاصة وأنه كان فى حاجة إلى العتاد والسلاح فقد استنجد بالدولة العثمانية وهى وقتذاك أكبر قوة إسلامية لها من ماضيها القريب فى خدمة الإسلام والدأب على توسيع رقعته فى شرق أوربا ، ولها من أسباب القوة ، وخاصة بحريتها النامية فى شرق البحر المتوسط ما مكنها من اقتحام حلبة الصراع الصليبى فى الحوض الغربى من البحر وتبديل مصائره لصالح

الإسلام والمسلمين • فأرسل "خير الدين" وفدا إلى السلطان "سليم الأول" برئاسة "أبو العباس أحمد بن القاضى" الذى اشتهر بجهاده ضد الإسبان لتصوير أوضاع المسلمين المتردية فى الجزائر ، وعرض أبعاد القضية عليه ، ومطالبته بربط مصير الجزائر السياسى بالدولة العثمانية ، وتقديم المساعدات العسكرية لها حتى تتمكن من قيادة عمليات الجهاد الدينى ضد الإسبان خصوصا وأن النزاع بين القبائل أدى إلى توغل الإسبان فى السواحل الجزائرية •

وبعد أن وصل الوفد إلى استنبول قابل الوزير الأعظم ثم السلطان الذى رحب بوضع الجزائر تحت السيادة العثمانية ، وأرسل إلى "خير الدين" فرمانا سلطانيا منحه لقب باشا ، وعينه حاكما عثمانيا على الجزائر برتبه "بكلربيك" أى أمير الأمراء وهو من أعظم ألقاب الدولة كما أرسل اليه ألفين من الجنود الإنكشارية وبعض الأسلحة والذخائر ، وسمح له بجمع ما يشاء من المتطوعين الراغبين فى الانضمام إلى صفوف المجاهدين ، يضاف إلى ذلك أنه أعطى "خير الدين" لقب قبودان وهو رتبة عسكرية تمكنه من قيادة الأساطيل العثمانية ، وتمنحه العديد من الاختصاصات العسكرية التى تجعله قائدا أعلى للقوات المسلحة فى بلاده • ونتيجة لذلك دخلت الجزائر رسميا تحت السيادة العثمانية ، وتحقق لبربروسا الحصول على القوات اللازمة لصد الهجوم الإسبانى على بلاده وأصبحت الجزائر مركزا عثمانيا لمجابهة الإسبان ومخططاتهم ، وقاعدة لتوسيع رقعة الحكم العثمانى فى شتى أنحاء بلاد الغرب ، وإلى جانب ذلك فقد نودى على منابر مساجدها باسم السلطان العثمانى ، وصارت العملة تسك باسمه •

وقد قام "خير الدين" باستحداث بعض التنظيمات التى تكفل قبول سكان الجزائر للحكم العثمانى كما تمكنه من التصدى للإسبان فعمل على بقاء حكم البلاد الداخلى لأبنائها حيث قسمها إلى قسمين قسم شرقى يشمل المناطق

الجبلية التى تقطنها القبائل وتمتد إلى الحدود التونسية ووضع على رأسها الشيخ "أحمد بن القاضى" وقسم غربى يمتد من مدينة الجزائر إلى حدود دولة بنى زيان ووضع على رأسه السيد "محمد بن على" فى حين ترك لمدينة الجزائر السلطة العليا ومباشرة أمور الحرب والسياسة ، وكان على رأسها "خير الدين" الذى حكم البلاد حكما شوريا ، فأسس إدارة لدراسة القوانين واللوائح وكل ما يصدر به أوامر ، كما كون مجلسا من كبراء رجال الدولة وقادة الجيش لإدارة شئون البلاد ، وإلى جانب ذلك فقد قرب أهل الجزائر إليه للتعرف على رغباتهم ومشاكلهم ٠

وخلال ذلك حاولت إسبانيا زعزعة استقرار الوجود العثمانى فى الجزائر عن طريق مساندة بعض المنافسين لخير الدين لكن محاولاتها باءت بالفشل كما برزت قدرة "خير الدين" فى التصدى للأسطول الإسبانى الذى واصل غاراته البحرية على الجزائر فشن عليه هجوما غنم على أثره العديد من السفن ، وأسر بعض ملاحيها ٠

وبعد أن هبطت حدة الصراع بين الدولة العثمانية وإسبانيا فى شمالى أفريقيا، واطمأن العثمانيون لإبعاد أخطار الغزو الإسبانى عن تلك الأقطار الإسلامية بدأت سلطة الدولة فى التراخى وقنع السلطان العثمانى بمظاهر السيادة فقط طالما استطاعت تلك الولايات أن تحفظ كيانها من الضغط الأجنبى بوسائلها الخاصة ، وقنعت الدولة بالتضامن الإسلامى العام الذى كان كفيلا بالإبقاء على روابط الولاء٠ وقد يرجع أسباب تراخى سلطة الدولة العثمانية فى الجزائر إلى بعد المسافة التى تفصل بينها وبين عاصمة الدولة ، وإلى ضعف البحرية العثمانية خاصة بعد هزيمة الأسطول العثمانى فى معركة "ليبانتو" عام ١٥٧١ ومن ثم لجأت الجزائر إلى تنظيم أداة الحكم وإدارة الحرب فيها على نحو يكفل لها الدفاع عن كيانها فى مواجهة الدول الأوربية ، كما لجأت الدول الأوربية إلى عقد معاهدات مع حكام الجزائر

والتى كان من أشهرها معاهدة التحالف بين فرانسوا الأول وخير الدين بربروسا (١٥٢٤) وانضمام السفن الجزائرية إلى السفن الفرنسية فى حربها ضد شارل الخامس ملك إسبانيا وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة ٠

وبدأت المؤامرات الداخلية تدبر ضد "خير الدين" والعثمانيين فسعى سلطان تونس إلى عقد محالفة مع سلطان تلمسان ضد "خير الدين" والوجود العثمانى فى الجزائر ، ولكن هذا التحالف لم يستمر طويلا حيث استطاع "خير الدين" هزيمة منافسيه وتوطيد نفوذه فى غرب الجزائر ٠ أما فى شرق الجزائر فقد حاول الحفصيون إثارة المشاكل ضد "خير الدين" ولكنه تمكن من تأديبهم وخاض ضدهم العديد من الحروب التى انتهت بانتصاره وتوسيع دائرة نفوذه فامتدت حدود الجزائر العثمانية نحو الجنوب حتى واحات الميزاب الموغلة فى الصحراء ، كما تمكن خير الدين من توجيه الضربات للسواحل الإسبانية ٠

وإلى جانب ذلك فقد اهتم "خير الدين" بإعادة تنظيم إقليم الجزائر فنظم موارد الخزينة من ضرائب ومغانم الزكاة والعشر والجزية والخراج وما يدفعه رؤساء القبائل والعشائر من العوائد والهدايا والخمس من المغانم البحرية ، كما أنشأ مجلسين استشاريين للشورى وأمور الديوان ٠

وظلت إيالة الجزائر العثمانية تثير قلق الإسبان ، وتهدد مواصلاتهم كما ظلت بمثابة الحارس الأمامى للدولة العثمانية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط والقاعدة التى ارتكز عليها العثمانيون لتحرير مدن وبلدان المغرب العربى من أيدى الإسبان٠

ونتيجة لانشغال "خير الدين" بقيادة الأسطول العثمانى فى البحر المتوسط تولى نائبه "حسن أغا" إيالة الجزائر وأخذ يتصدى لقوات الإمبراطور "شارل الخامس" التى عملت على إيجاد تحالفات مع بعض الكيانات المحلية وعقدت معاهدات تبعية مع ملوك وأمراء بنى حفص ، وبنى

زيان وبعض مشايخ القبائل ، كما أخذ يتصدى للحمــلات العسـ... التي أرسلها الإسبان لطرد الأتراك العثمانيين من الجزائر ٠

وقد عمل حسن أغا على دعم قوة الجزائـــر فـــى مواجهـــة الإسبان وأتباعهم ففى الداخل عمل على توطيد الأمن ، وإلى إلتفاف الأهالى حولـه ٠ كما عزز نفوذه جنوبا بعد أن نجح فى إخضاع القبائل هناك ٠ وإلى جـــانب ذلك فقد قام بتجهيز أسطول هاجم به السواحل الإسبانية ، وأثار الرعب بين سكانها ٠ ففى جمادى الأولى ٩٤٦هـ / ســبتمبر ١٥٣٩ أقلــع بأسـطوله المكون من ثلاث عشرة سفينة تقل ألف وثلاثمائة رجل نحو جبل طـــارق ٠ ونجح فى احتلال هذه المنطقة والاستحواذ على ما فيها من غنائم ، كما توغل فى جهات الساحل الإسبانى الجنوبى وغنم العديد من المتاع والأسرى ٠ كـل ذلك دفع الإمبراطور "شارل الخامس" إلى محاولة الاستيلاء على الجزائـــر ، وفصلها عن الدولة العثمانية بشتى الطرق ٠ فعرض على "خير الدين" حكـم شمال أفريقيا تحت السيادة الإسبانية ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل خاصـة وأن "خير الدين" أبلغ السلطان العثمانى بالأمر ٠ ونتيجة لذلك أعد "شـــارل الخامس" حملة كبيرة تحركت إلى الجزائر ، وتمكنت من الاســـتيلاء علـــى مينائها والالتفاف حول المدينة لاحتلالها من الخلف ، مما أصاب أهل البــلاد بالهلع ٠ وفى اعقاب ذلك أرسل الإمبراطور الإسبانى يطلب من "حسن أغـــا" التسليم ، ولكنه رفض ذلك ، وأعلن أن رجاله سيحاربون إلى آخر رجـــل ٠ ولم تلبث الأمور أن تغيرت حيث هبت عاصفة هوجاء اجتـــاحت شـــواطئ الجزائر ، وصحبها هطول أمطار استمرت عدة أيام فســد خلالـــها مفعـــول البارود الذى فى حوزة الإسبان ، كما إقتلعت الرياح خيام جنود الحملـــة ، وارتطمت السفن بعضها ببعض مما أدى إلى غرق كثـــير منـــها ، وقذفـت الأمواج الصاخبة ببعض السفن الأخرى إلى الشاطئ ، وهجم عليها المدافعون المسلمون ، واستولوا على ذخائرها ٠

وفى وسط هذه الأهوال نجح "حسن أغا" فى مفاجأة العدو ، والالتفاف حوله مما أدى إلى فشل محاولات الإمبراطور الإسبانى فى مهاجمة مدينة الجزائر خاصة وأن تساقط الأمطار والعواصف الجوية لم تكن فى حسبانه ، وكان الجزائريون قد خرجوا لملاقاة القوات الغازية فأفنوا جزءا كبيرا منها ، مما أجبر المهاجمين على الانسحاب وكان له أبلغ الأثر فى ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين ، مما دفع السلطان العثمانى "سليمان القانونى" إلى منح "حسن أغا" وأعوانه العديد من الألقاب والنياشين .

وبعد وفاة "حسن أغا" فى رمضان ٩٥٢هـ/ نوفمبر ١٥٤٥م تولى حكم الجزائر "حسن بن خير الدين بربروسا" الذى تمكن من التصدى للتكتلات الصليبية ، ومنعها من احتلال مدن الساحل فى وهران ، والمرسى الكبير ، وبجاية . وذلك بفضل مهارته فى الأمور الحربية البرية والبحرية ، كما عمل على تنظيم إيالته إداريا وعسكريا ، فقام بالقضاء على تمرد القبائل القاطنة فى المناطق الغربية من الجزائر ، وتنظيم الجيش ، وتحقيق الانضباط فيه ومع ذلك فإن المؤامرات التى حيكت ضد "حسن باشا" لدى السلطان العثمانى أدت إلى عزله من منصبه وتولية "صالح ريس" حاكما على الجزائر فى محرم ٩٥٩هـ / يناير ١٥٥٢م . وقد عمل "صالح ريس" على تأمين إيالة الجزائر من الداخل والتصدى للحكومات المحلية المتعاونة مع الإسبان ومن أجل ذلك قاد حملات عسكرية لوضع حد لهذه الأمور ، ونتيجة لتركز فكرة الجهاد الإسلامى فى ذهن "صالح ريس" فقد قام بمحاصرة سواحل الإسبان ، وعمل على إيجاد جبهة إسلامية موحدة فى المغربين الأوسط والأقصى لمحاربتهم ، كما نجح فى إنهاء حكم الأسرة الزيانية فى تلمسان ، وضم هذه المنطقة إلى إيالة الجزائر العثمانية وفى ربيع الأول ٩٦٣هـ/ يناير ١٥٥٥ شن "صالح ريس" هجوما على المراكز الإسبانية استطاع خلاله انتزاع منطقة "بجاية" من الإسبان ، كما أرسل قواته لتحرير وهران ولكن القدر لم يمهله فتوفى فى رجب ٩٦٤هـ/ يوليو ١٥٥٦م . وفى أعقاب ذلك شهدت إيالة

الجزائر أوضاعا مضطربة ، استغلها السعديون للاستيلاء على تلمسان ولكن جهودهم لم تكلل بالنجاح ٠

ومن أجل إعادة الأمن والاستقرار فى الجزائر عين السلطان العثمانى "حسن بن خير الدين" بكلر بيك على الجزائر ، فطارد جيش السعديين المحاصر لتلمسان ، وحاول أن يحرر وهران والمرسى الكبير ولكنه فشل فى ذلك ٠

ونتيجة لتدهور أمور ولاية الجزائر خاصة بعد انتشار الأوبئة والمجاعة وتمرد الجند ، والخلافات القائمة بين البحارة والإنكشارية والثورة التى قامت فى قسطنطينية أمر السلطان العثمانى بتولية "علج[1] على حاكما على الجزائر فوصلها فى رمضان ٩٧٥هـ/ مارس ١٥٦٨ ٠ وقد شهدت ولاية الجزائر فى عهده استقرارا واضحا ، كما شهدت نشاطا ملحوظا ضد الإسبان ولتوحيد جهود المسلمين فى مواجهة الصليبيين رأى "علج على" ضرورة تحقيق وحدة بلاد المغرب العربى تحت الحكم العثمانى ومن أجل ذلك إهتم بتوجيه الجهاد العثمانى لطرد الإسبان من بلاد المغرب العربى عن طريق وضع مخطط لمساعدة الموريسكيين فى ثورتهم

---

(١) كلمة عربية جمعها "علوج" بضم العين واللام للدلالة على أصل من يحملها بأنه أجنبى فقد كان البحارة الجزائريون من أجناس متعددة ، ولكن الشرط الضرورى للانخراط فى سلك البحرية الجزائرية هو اعتناق الإسلام ، وكان يطلق على أولئك الذين يغيرون دينهم ويعتنقون الإسلام – ومعظمهم من الأسرى – اسم العلوج وكان هؤلاء العلوج يحصلون على أرقى المناصب ٠

انظر محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى ، بيروت ١٩٧٩ ص ٩٣ ٠

ضد الإسبان والتوجه إلى تونس لتحريرها من أيديهم ثم جمع الجيوش لإعادة فتح الأندلس وضم المغرب الأقصى إلى الدولة العثمانية وبالنسبة لتونس فقد توجه "علج على" لفتحها وتمكن من هزيمة القوات الحفصية المؤيدة من قبل الإسبان ، ودخول المدينة فى نهاية عام ٩٧٧هـ / ١٥٦٩ حيث رحب به الأهالى وأخذ البيعة للسلطان العثمانى "سليم الثانى" وضرب السكة باسمه . وبالنسبة للفترة من ١٥٨٨-١٦٥٩ فقد تميزت بالصراع بين قوى ثلاثة هى الباشا ممثل السلطان ، والإنكشارية، وأمراء البحر وقد ساند الإنكشارية أمراء البحر من أجل الحصول على الغنائم مما أضعف من سلطة الباشا . وفى عام ١٦٥٩ تم خلع الباشا العثمانى، وانتخاب الداى[١] رئيس الديوان حاكما على الجزائر مما أدى إلى تحكم قادة الجند فى الدايات ، وقد استاء الأهالى من هذه الفوضى ، وساندوا أمراء البحر الذين فرضوا أحد رجالهم على الأوجاق فى عام ١٦٧١ ووضعوا حدا لسيطرة الإنكشارية . ومنذ عام ١٧١١ اغتصب داى الجزائر صلاحيات الباشا العثمانى . وظل الدايات ينتخبون من بين أمراء البحر وبمرور الوقت أصبح الداى يحكم دون مشورة الديوان ، وأصبح حاكما مستقلا لا سلطان للدولة العثمانية عليه سوى السيادة الإسمية .

وخلال ذلك أصبحت السلطة الحقيقية فى أيدى رؤساء القوات غير النظامية ، ولم يصبح للسلطان العثمانى سوى السيادة الإسمية فقط وأصبح الحاكم الملقب بالداى هو المتقلد الرسمى لأمور الحكم ونتيجة للسلطات

---

(١) الداى كلمة تركية تعنى (خال) ولكنها فيما يبدو لم تستخدم للدلالة على عمل وظيفى إلا فى الجزائر وتونس ، وكانت فى بادىء الأمر لقبا شرفيا ثم تحول لوظيفة عسكرية فى الجيش الإنكشارى .

الواسعة التى أعطيت للدايات تحولت الجزائر تدريجيا إلى دولة شبه مستقلة فقد كان من حق الدايات عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية دون الرجوع إلى السطان العثمانى ولم تكن إيرادات البلاد يرسل منها شئ إلى الآستانة بل كانت تصرف معظمها داخل الجزائر وخلال القرن الثامن عشر شهدت الجزائر انهيارا اقتصاديا بسبب كساد الحركة التجارية نتيجة لحصار بعض الدول الأوربية للشواطئ الجزائرية ، كما شهدت فوضى سياسية بسبب النزاع بين الدايات وبعض رجال الجيش من جهة ، وقراصنة البحر من جهة أخرى مما أدى إلى اضطراب الأمن ، وفقدان الدايات للسيطرة على أمور بلادهم .

ونتيجة لضغوط قباطنه البحر الجزائريين على السفن الأوربية التى تمر بشواطئ بلادهم وفرضهم الأتاوات المستمرة عليهم ضاقت بعض هذه الدول من ذلك الوضع فأرسلت إسبانيا حملة فى عام ١٧٧٥ للاستيلاء على ثغر الجزائر التى كانت تعده مكمن الخطر على سفنها فى البحر المتوسط ، ولكن هذه الحملة فشلت فى الاستيلاء على الثغر الجزائرى رغم النيران الحامية التى صبتها عليه . ومع ذلك لم تتوقف المحاولة فقد حاول الإسبان تكوين حلف أوربى ضد الجزائر ، ولكن محاولتهم فشلت مما جعل الدول الأوربية تتنافس فيما بينها لكسب ود حكام الجزائر وعقد امتيازات سياسية وتجارية معهم وإلى جانب ذلك فقد حاولت الولايات المتحدة إقامة تحالف أمريكى أوربى ضد الجزائر ، ولكنها فشلت مما أدى إلى رغبتها فى شراء السلام بالمال .

ولنا هنا أن نتساءل هل الجهاد البحرى الإسلامى ، وفرض الأتاوات على السفن الأوربية التى تخالف المسلمين فى عقيدتهم الدينية تسمى قرصنة .

الواقع أن تاريخ الجزائر الحضارى تعرض لكثير من التشويه فالمؤرخون الأوربيون يصرون على اعتبار البحارة المسلمين الذين جاهدوا لوقف الهجمات الصليبية على بلادهم أمثال "عروج" وأخيه "خير الدين

بربروسا و"صالح ريس" على أنهم قراصنة مع أن هؤلاء كان مثلا أعلى في البطولة والفدائية فقد جسد "عروج" و"خير الدين" في نظر الجزائريين روح المواجهة والاستبسال في المعارك التي خاضوها دفاعا عن إسلام وعروبه شمالي أفريقيا ، واستطاعوا جمع صفوف سائر مسلمي هذه البلاد لمواجهة أعداء الإسلام ومن المؤسف حقا أن نرى بعض المؤرخين والباحثين المسلمين قد سايروا المؤرخين الأوربيين في هذا الرأي الخاطئ ، ووصفوا عمليات الجهاد الديني البحري التي قام بها هؤلاء البحارة ضد السفن المسيحية التي دأبت على التعرض للسفن الإسلامية بأنها عمليات قرصنة رغم خطئها إذ يجب أن نطلق عليها عملية الجهاد البحري الإسلامي ، فليس من المنطقي أن نعتبر الرجال الذين يخرجون على سفنهم المسلحة للدفاع عن السواحل الإسلامية في شمالي أفريقيا والعمل على حماية الممتلكات والأرواح الإسلامية بأنهم قطاع طرق وقراصنة ولاهم لهم سوى السلب والنهب وخنق التجارة الدولية ، وعرقله قيام علاقات سلمية بين الشعوب ومن الغريب حقا أن نجد أفكارا خاطئة حول هذه الموضوع لا تزال رائجة يرددها متخصصون أكاديميون ۰ الواقع أن هجوم السفن الإسلامية ضد السفن البحرية الصليبية كان جهادا بحريا إسلاميا خاصة وأنه كانت هناك حروب مستمره مع هذه الدول ۰

وقد استند المسلمون إلى مبدأ الجهاد الإسلامي في محاربة أعداء الإسلام سواء على الأرض أو في البحر ۰ لذلك فإن ما قام به رجال البحر الجزائريون ضد سفن إسبانيا والبرتغال وفرسان القديس يوحنا كان جهادا بحريا إسلاميا جاءت بدايته ردا على اعتداءات تلك القوى الصليبية على المسلمين في إسبانيا وفي شواطئ بلاد المغرب ۰ كما أن ما قاموا به يمكن إعتباره من قبيل الدفاع عن النفس ضد أطماع القوى الصليبية ، يضاف إلى ذلك أنه من المعروف أن القرصنة – إذا صح ذلك التعبير – لم تكن مقصوره على مسلمي شمال أفريقيا ، ولكنها كانت سلاحا استخدمه المسلمون وغير

المسلمين ، فكما كانت السفن الإسلامية **تعتدى على** سفن الدول الأوربية ، فإنها كانت سلاحا استخدمه الأوربيون **ضد بعضهم البعض** وضد المسلمين أيضا فقد استخدمه الإنجليز ضد سفن **خصومهم** الإسبان ، وباركته الحكومة الإنجليزية ، كما شهره البرتغاليون ضد **السفن الإسلامية** بعد موقعة ديو البحرية . وعلى أى حال فقد استطاع **قباطنة البحر** المسلمون الدفاع عن الشمال الإفريقى ضد العدوان الإسبانى **المتحالف** مع فرسان القديس يوحنا حتى لاح لهم أن من الخير أن **ينضموا تحت لواء** الدولة العثمانية ففعلوا وتحول الجهاد **الإسلامى** فى منطقة **المغرب العربى** من جهاد فردى ، إلى جهاد دولة تمتلك من الأساطيل ما **تستطيع به** ردع أى عدوان صليبى ضد أى دولة إسلامية . وظلت الروح **الصليبية تؤثر** فى **العلاقات** بين ولايات المغرب العربى والدول **الأوربية** ، **حتى بدأت** المشروعات التى وضعت للتدخل فى شئون هذه الولايات تبدو **للعيان** ، فنتيجة لتردى العلاقات بين فرنسا والجزائر فى عهد إمبراطورية **نابليون** راودت بونابرت فى عام ١٨٠٨م فكرة الاستيلاء على الجزائر **فكلف أحد** ضباطه بوضع خطة عسكرية لمشروع حملة فرنسية على **الجزائر** وقد قام هذا الضابط بكتابة تقرير للسلطات الفرنسية أوضح فيه **إمكانية الاستيلاء** على الجزائر ، وأشار إلى الأماكن التى تصلح لإ نزال الجنود **الفرنسيين** ، والطرق والآبار التى يمكن أن يستخدمها رجالات الحملة .

وعلى الرغم من أن **هذا** التقرير **قد حفز** نابليون على الاستيلاء على **الجزائر** فإن الظروف الدولية فى ذلك **الوقت** لم تسمح له بتحقيق هذه الأطماع التى بدأت تثبت فى أذهان ساسة فرنسا **الذين كانوا** يتحينون الفرص المناسبة لذلك .

وقد انتهزت فرنسا فرصة فقدان **الدولة** العثمانية لأسطولها فى معركة "نوارين البحرية" ١٨٢٧م ، فحاولت اقتطاع **الجزائر** من أملاك العثمانيين

خاصة وأنها كانت ترغب فى الحصول على الموارد الأولية اللازمة لصناعاتها ، وإيجاد الأسواق اللازمة لتصريف منتجاتها وتوظيف رءوس أموالها .

وقد استغلت فرنسا فرصة المشادة الكلامية التى حدثت بين داى الجزائر وقنصلها هناك نتيجة لمماطلتها فى دفع المستحقات التى عليها للجزائر نظير الحبوب التى استوردتها منها ، فأرسلت فى يونيو ١٨٢٧ أربع سفن حربية إلى الشواطئ الجزائرية ، ووجهت إنذارا إلى الداى كانت أهم بنوده الترضية الكاملة عما لحق بفرنسا من إهانة ، وتقديم كافة الضمانات التى تحول دون تعرض السفن الفرنسية لأى إجراءات تفتيشية من السفن الجزائرية ، وأن تتمتع فرنسا فى الجزائر بحق الدولة الأكثر رعاية ، وأن يعلن الداى أن حكومة فرنسا قد أوفت بالتزاماتها المالية تجاه الجزائر وأنه ليس له أى حق قبلها وقد هددت فرنسا بإعلان الحرب على الجزائر فى حالة رفضها لشروط الإنذار ، ومع ذلك فقد رفض الداى الإنذار الفرنسى ، وأصر على التمسك بموقفه ، وأخذ يتهكم على المطالب الفرنسية بقوله "لم يبق إلا أن يطلبوا إمرأتى" .

ونظرا لأن قيام فرنسا بعملية حربية ضد الجزائر أصبحت شبه مؤكدة أبلغت فرنسا الدولة العثمانية بأن والى الجزائر الذى أظهر عداء واضحا للفرنسيين بتحقيره لقنصل فرنسا ، ورفضه تقديم الترضية العلنية قد جعل الحرب محققة بين فرنسا والجزائر . ولما كانت الدولة العثمانية منشغلة فى مشاكلها فى جزيرة المورة ، ولا تنوى إضافة أعباء أخرى تضاف إلى همومها فقد تباطأت فى حسم الموقف بالطريقة المناسبة مما أعطى لفرنسا فرصة الانفراد بالأمر ، وخلال هذه الفترة بدأت فرنسا فى البحث عن حلول أخرى تجنبها نفقات الحرب ، وفى نفس الوقت تجعل المسلمين يقتلون بعضهم بعضا فاقترح "دورفتى Drovetti " قنصل فرنسا فى الإسكندرية قيام

محمد على والى مصر بحملة على الجزائر بمساندة فرنسا لتأديب الداى والقضاء على حكومته ، واحتلال الجزائر وضمها إلى أملاكه على أن يكون لحليفته فرنسا إمتيازات واسعة فى هذه البلاد .

ولما فوتح محمد على فى الأمر تردد فى البداية خشية فقدان ثقة العالم الإسلامى فيه وقال للقنصل الفرنسى "أنتم مسيحون أما نحن والجزائريون فمسلمون، وسماع أقوال كتلك ونحن ذوو دين ، وأمة وشريعة ودولة واحدة ، لا يتلاءم مع ديننا ودولتنا" ولكن سرعان ما عدل محمد على عن رأيه ووافق على فكرة القيام بحملة لتأديب الداى بشرط أن تدفع له فرنسا مبلغا ماليا ، ودعما بحريا يمكنه من إعادة بناء أسطوله الذى تحطم فى موقعة نفارين البحرية عام ١٨٢٧م .

وفى محاولة من محمد على لتكشف الموقف أرسل إلى الداى برسالة ينصحه فيها ويحذره من العواقب الوخيمة اذا أصر على موقفه المعادى لفرنسا ، وكان رد الداى عليه فليذهب محمد على ليأكل الفول .

وحتى يأخذ مشروع محمد على بالحملة على الجزائر شكلا رسميا لا تعترض بريطانيا أو غيرها عليه رأت فرنسا ضرورة أخذ موافقة السلطان العثمانى على المشروع وعندما تسرب الخبر إلى الإنجليز اعترضوا عليه وحرضوا السلطان العثمانى ضده ، كما حذرت بريطانيا محمد على الذى بدأ يرتبط بالمصالح الفرنسية من الإقدام على هذا العمل وإلى جانب ذلك فقد ثارت الدول الأوربية ضد هذا المشروع كما عارضت الدولة العثمانية إمتداد نفوذ محمد على إلى شمالى أفريقيا وإزاء هذه العقبات أغمضت فرنسا أعينها عن هذا المشروع ، وظلت تتحين الفرص المواتية للقيام بنفسها بحملة عسكرية ضد الجزائر والانفراد باحتلالها وقد جاء الوقت المناسب لذلك عندما انشغلت بريطانيا بالانقلاب النيابى الذى حدث فيها خلال ذلك الوقت وانشغلت الروسيا وبروسيا والنمسا بالثورات التى اندلعت فى إيطاليا وبولندة

فى تلك الفترة فتذرعت فرنسا أمام الرأى العام الأوربى أنها تدافع عن قضية أوربية تدعم من خلالها قواعد العدل وأصدر ملكها قرارا فى ٧ فبراير ١٨٣٠ بإعلان التعبئة العامة ثم صدرت الأوامر بعد ذلك بغزو الجزائر فابحر الأسطول الفرنسى من ميناء طولون فى شهر مايو من نفس العام وهو يحمل ٢٠ ألفا من رجال البحرية وقام الجيش الفرنسى المكون من ٣٧٦٠٠ مقاتل ، ٩١ قطعة مدفعية بغزو الجزائر ، وبدأ بإنزال فى سيدى فرج على بعد ٢٥ كيلو مترا غربى مدينة الجزائر ونتيجة لذلك عهد الداى إلى صهره إبراهيم أغا بقيادة القوات المدافعة . وقد دافع الجزائريون عن بلادهم دفاعا مجيدا استطاعوا خلاله حصر الزحف الفرنسى فى شريط ساحلى لا يشمل كل الشواطئ الجزائرية ، ومرت ثلاث سنوات دون أن يستطيع الفرنسيون من فرض سيطرتهم على أكثر من بضع موانى ساحلية بينما أصبح داخل البلاد فى أيدى الزعماء ورؤساء القبائل .

وخلال الفترة من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٩ قامت سياسة فرنسا فى الجزائر على فكرة الاحتلال المحدود المقتصر على الساحل دون الداخل ثم تحولت هذه السياسة إلى التوغل فى الداخل ، فنجح الفرنسيون فى احتلال سيدى فرج والوصول إلى مدينة الجزائر ، ومهاجمة قلعة السلطان ، وحصن القصبة ، وإشعال النار فى مخازن الذخيرة ولما رأى الداى تحول الموقف فى غير صالحه حاول الحصول على صلح مشرف مع الفرنسيين ، ووسط فى ذلك قنصل بريطانيا ولكن الفرنسيين رفضوا هذه الوساطة وأصروا على فرض شروطهم والتى كان من أهمها ما يلى :

١-تسليم حصن القصبة ، وجميع حصون مدينة الجزائر وأبوابها للفرنسيين .

٢- ضمان القائد الفرنسى حماية الداى ، وممتلكاته الشخصية .

٣- ترك الحرية للداى فى الإقامة أو الرحيل إلى أى مكان يريده ٠

٤- عدم اتخاذ أى إجراءات إنتقامية ضد الجنود الجزائريين ٠

٥- كفالة حرية الجزائريين فى إقامة شعائرهم ، وصيانة ممتلكاتهم وتجارتهم وصناعتهم ، والمحافظة على أعراضهم ٠

وقد وافق الداى على هذه الشروط التى تضمنت متطلباته وقرر مغادرة مدينة الجزائر هو وأسرته إلى نابلى بإيطاليا ، ونتيجة لذلك انتهت آخر مظاهر التبعية للعثمانيين فى الجزائر ووقعت أعباء المقاومة على الشعب الجزائرى نفسه ، وبدأ الاستعمار الفرنسى الرسمى فى الجزائر ، وقد حاولت الدولة العثمانية استرداد الجزائر بالطرق بالدبلوماسية ، وبذلت مساع عديدة لدى إنجلترا والنمسا من أجل استرجاع سيادتها على هذا الإقليم ولكنهما كانتا مشغولتين بالأوضاع الأوربية فى ذلك الوقت ٠

ومما سبق يتضح أن أهم العوامل التى ساعدت فرنسا على احتلال الجزائر هو تغير الموقف الدولى لصالحها ، هذا بالإضافة إلى دخول الدولة العثمانية فى دور الاضمحلال وعدم قدرتها على الصمود بنجاح أمام الهجوم الاستعمارى ، وعدم معرفة داى الجزائر بعواقب الأمور ، وبقدرات فرنسا العسكرية التى برزت مع النهضة الأوربية والتطور الصناعى فى أوربا ٠ هذا عن تاريخ الجزائر منذ تبعيتها للدولة العثمانية حتى الاحتلال الفرنسى لها أما عن نظام الحكم العثمانى للجزائر ، ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيمكن حصرها فيما يلى :

### ١- نظام الحكم العثمانى فى الجزائر

لم يكن للدولة العثمانية خطة واحدة لإدارة حكم الجزائر بل تأثرت سياستها بصفة عامة بالأوضاع الداخلية التى كانت سائدة ، وبتطور الأحداث فى هذه البلاد فبعد أن دخلت الجزائر فى حوزة العثمانيين بمبادرة من خير

الدين اعتبرت ولاية ممتازة ، وقاعدة لتوسيع الحكم العثمانى فى كافة بلدان المغرب العربى .

وقد شهدت الجزائر عدة تغيرات خلال الحكم العثمانى لها يمكن تقسيمها إلى أربع فترات وهى :

أ- الفترة الأولى من ١٥١٨ - ١٥٨٨م وهى فترة حكم البيكلر بكوات وفيها كان الوالى بمثابة ممثل السلطان أو نائبه ، وكانت الجزائر تعد أقوى نيابات المغرب وكان البكلريك يعين من قبل السلطان ، وهو بدوره يشرف على الباشوات الحاكمين فى إقليمى طرابلس وتونس .

وبعد أن ألغت الدولة نظام البيكلريك أصبحت الجزائر ولاية عادية ، وأصبحت كل ولاية قائمة بنفسها يتولاها الباشوات الذين تعينهم حكومة الباب العالى .

٢- الفترة الثانية ١٥٨٨-١٦٥٩م وفيها فقد الباشوات سيطرتهم الفعلية على الإنكشارية وانتقلت السلطة إلى الأوجاقات .

٣- الفترة الثالثة ١٦٥٩ - ١٦٧١م وفيها استأثرت الإنكشارية بالسلطة وعمت الفوضى وانتهى الأمر بتولى رجال البحر زمام الأمور وتم تولية أحدهم تحت لقب "داى" .

٤- الفترة الرابعة ١٦٧١ - ١٨٣٠م وفيها استمر لقب الداى موجودا وإن أصبح دايات الجزائر يحملون لقب "الباشا" وإلى جانب ذلك فقد عاون حكام الجزائر فى إدارة شئون البلاد مجلس استشارى ، هذا بالإضافة إلى الديوان الذى كان يتألف من نائب الحاكم الأعلى ويطلق عليه الكاهية . وقد تركزت مهمة الديوان فى مساندة الحاكم فى إدارة البلاد .

وبالنسبة للقوات العسكرية فقد كان يطلق عليها الحامية العثمانية وليس جنود الاحتلال وكان نواتها الجنود الإنكشارية الذين أرسلهم السلطان إلى

"خير الدين" أثناء فتح الجزائر والمتطوعون الذين يتم إرسالهم عن طريق الدولة العثمانية والذى لم يقتصر دورهم فى الدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن ، بل أخذ معظمهم يتدخل فى إدارة شئون البلاد وفى حياة السكان بصورة واضحة مما أدى إلى إضعاف الحكومة والجيش معا وكان مقتل تركى واحد دافعا لحدوث مجزرة بين الأهالى إذا لم يقبض على القاتل ٠

ونتيجة لاستقرار هؤلاء الجند فى الجزائر فقد بدأوا يتزوجون من الأهالى الذين كانوا يرحبون بذلك رغبة فى الحماية الفعالة منهم ، كما عمل بعضهم بالتجارة وربحوا ثروات طائلة ٠

ومن الفرق العسكرية الشهيرة فى الجزائر القولوغلى وهم المولدون من زواج الإنكشارية بنساء من الأهالى ٠ وقد استخدم بعضهم فى الوظائف المساعدة ، وفى أن يكونوا واسطة بين الحكومة والأهالى نظرا لمعرفتهم اللغة التركية ، وقد تميز هؤلاء يتولى العديد من السلطات وإلى جانب هؤلاء فقد كان هناك طائفة الرؤساء وهم رجال البحر الذين كانوا طليعة التدخل العثمانى فى الجزائر ولعبوا دورا بارزا فى خلق النيابات العثمانية فى شمال أفريقيا كما تركز نشاطهم ضد السفن الأوربية وغنموا منها الكثير من الغنائم والأسرى ٠ وكانت هذه العمليات تحمل طابع الحروب الدينية بين المسلمين والمسيحيين ٠ وبالإضافة إلى ذلك فقد كلف هؤلاء بحماية القطاع الغربى من البحر المتوسط ضد إسبانيا عدو الإسلام التقليدى فى ذلك الوقت وقد نجح هؤلاء فى مهمتهم إلى حد كبير نظرا لمهارتهم فى قيادة السفن ، وانضباطهم ومعرفتهم لشواطئ بلادهم الأصلية مما جعل لهم مكانة كبيرة فى الجزائر خاصة وأن المغانم التى كانوا يحصلون عليها كانت أهم موارد البلاد ٠

وحول النظام الضريبى فى الجزائر وغيرها من الولايات الغربية فقد كان محددا من قبل الدولة العثمانية ، وكان فرض الضرائب يتم بطريقة تعسفية ترهق السكان وتثير ردود فعل عنيفة ، ففى كل عام تخرج مفرزة

عسكرية تبدأ عملها ما بين شهرى مايو وأكتوبر وتتجول فى القرى والمناطق القبلية بهدف جمع الضرائب المقرة عليها ، وكانت عملية انتقال هذه المفوزة من منطقة إلى أخرى ، وعملية إطعام مابها من جنود وموظفين يتحملها الأهالى • وليس معنى ذلك أن كل القبائل كانت تسدد ما عليها من ضرائب فكانت هناك قبائل لا تدفع الضرائب نظرا لصعوبة فرض سلطة الحكومة عليها •

وكانت الضرائب على نوعين : ضرائب شرعية مثل الزكاة والعشور على المحاصيل وتحدد بحسب الأفدنة المزروعة وضرائب أخرى متعددة مثل العوايد وهى بمثابة هدايا إجبارية تقدم فى المناسبات كالأعياد ، وهناك ضريبة "اللزمة" وكانت تؤخذ لتموين الجند فى الأرياف ، وهناك ضرائب المكوس على الأسواق • وإلى جانب ذلك فكان سكان المدن يدفعون ضرائب على المهن التى يعملون بها

وكان تقدير الضرائب يجرى بطريقة عشوائية بهدف تأمين حاجات الإدارات الحكومية • فقد كان نظام الالتزام بؤرة لكثير من المفاسد والعيوب والنهب والتى تقع جميعها على عاتق الأهالى حيث كان الفلاح يدفع مثلى أو ثلاثة أمثال الضريبة المقررة عليه • وكان الامتناع عن الدفع يعد عصيانا كبيرا •

وإلى جانب ذلك فقد كانت خزينة البلاد تعتمد على موارد أخرى فقد كان لها حصة من الأتاوات التى يفرضها البحارة على الدول الأوربية مقابل حرية مرور سفنهم ، كما كانت الهدايا التى يقدمها القناصل للدايات أشبه بجزية سنوية •

وفى محاولة لضبط الأمور عملت الحكومة العثمانية على الاستعانة ببعض القوى المحلية لفرض سيطرتها على الولاية ، فاختاروا بعض القبائل وسموها بالمخزن ، وكلفوها بالمساعدة فى القيام بأعمال الشرطة وتأديب

القبائل العاصية التى ترفض دفع الضرائب وذلك فى نظير بعض الامتيـازات التى تمنحها لها .

كما أنشأت الحكومة ما يسمى "بالسمول" (جمع سمالا) وهى جماعـات صغيرة من الأهالى منحتها بعض الأراضى للإقامة فيها نظير قيامها بحماية الجنود والمسافرين ، والمحافظة على الأمن فـى المنـاطق المحيطـة بـها والمحافظة على بعض النقاط الهامة .

وبعد أن اتسع نطاق إيالة الجزائر تم تقسيمها إلى عدة ولايات وهى :

- ولاية الجزائر وكانت تسمى دار السـلطان ، وتشـمل مدينـة الجزائر وضواحيها وترتبط بالداى مباشرة .
- ولاية الجنوب وكان يحكمها باى وعاصمتـها الميديـة وكـانت أصغر الولايات .
- ولاية الغرب وكان يحكمها باى وعاصمتها مازونه ثم نقلت بعـد ذلك إلى مدينة معسكر ثم إلى وهران .
- ولاية الشرق وكان يحكمها باى وعاصمتها قسطنطينة وتمتد حتى حدود تونس .

واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى عام ٩٩٥هـ ١٥٨٧م وبعدها أرسلت الدولة العثمانية إلى الجزائر ولاة يحملون لقب باشا كان الواحد منهم يعين لمدة ثلاث سنوات ، ثم تغير ذلك النظام فى عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٩ بمـا أطلق عليه مرحلة الأغوات وأعقبه مرحلة الدايات فى عام ١٦٧١م الـذى استمر حتى وقعت الجزائر فى قبضة الاحتلال الفرنسى عام ١٨٣٠ م .

وبالنسة للنظام القضائى فقد كان جزءاً من التنظيم القضـائى للدولـة العثمانية الذى يبدأ بشيخ الإسلام ، واثنين من قضاة العسكر . وقـد عيـن قاضيان بالجزائر أحدهما للمذهب الحنفى المذهب الرسمى للدولة العثمانيـة ،

والآخر للمذهب المالكى الذى كان يسير عليه معظم سكان شمال أفريقيا ٠ كما وجد المجلس الشرعى الأعلى الذى يتألف من قاضيين ومفتيين على المذهبين المذكورين ٠ وأحد المشايخ للنظر فى شئون الأوقاف وممثل للحكومة ، وكانت مهمة هذا المجلس تتحدد فى مراجعة أحكام القضاء ، والنظر فى المنازعات الكبرى وكان مقره بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة، ويحضر الحاكم اجتماعاته غالبا ٠

## ٢- أحوال الجزائر الاقتصادية خلال الحكم العثمانى

وبالنسبة للنواحى الاقتصادية فلم يكن للدولة العثمانية أثر ملموس فى ذلك فلم تتدخل فى تحسين وسائل الزراعة البدائية أو فى العمل على الوقاية من الكوارث الطبيعية والأوبئة أو الاهتمام بالمجارى المائية بل تركت الأمور على حالها ، وإلى جانب ذلك فقد كان لارتفاع نسبة الضرائب على الفلاحين أكبر الأثر فى عدم استغلال الأراضى الصالحه للزراعة ويقال نفس الشئ عن التجارة ٠ حقيقة كان هناك ازدهار محدود فى هذا القطاع الذى تمثلت أنشطته فى المبادلات التجارية المحلية بالأسواق ، وفى التبادل التجارى مع المدن الحدودية فى تونس والمغرب ، ولكن التبادل التجارى الخارجى كان مخيما عليه حركة الكساد نظرا لوقوف الدول الأوربية فى وجه حركة التجارة الجزائرية بالمرصاد ، هذا إلى جانب عدم اهتمام الدولة بإنشاء الموانى الصالحة للتجارة ، وبالنسبة للنظام النقدى فى الجزائر فقد أصدرت الجزائر سكتها باسم السلاطين العثمانيين إشارة إلى التبعية والولاء ٠ فقد سك فى الجزائر أنواع مختلفة من النقود الذهبية والفضية والنحاسية وإلى جانب النقود العثمانية فقد اتبع نظام الأوزان والأطوال والمقاييس والمكاييل العثمانية مثل القنطار والأقة ، والأوقية ، والدرهم ، والمثقال الذهبى والذراع القياسى وغيره ٠

وبالنسبة للصناعة فقد وجد بالجزائر صناعات مختلفة منها صناعة النسيج ، ودباغة الجلود ، وصناعة السجاد ، وصناعة الأحذية ، وصياغة الذهب ، والصناعات الخزفية ٠

## ٣- الحياة الثقافية فى الجزائر خلال الحكم العثمانى :

أما عن الحياة الثقافية فى الجزائر خلال الحكم العثمانى فقد طبعت بالطابع الإسلامى فقد ارتبط التعليم والقضاء والعلاقات الاجتماعية والفكرية بالنظام الإسلامى فكان التعليم منتشرا فى أوساط القرى والريف عن طريق المساجد والزوايا التى كانت تمول من الأوقاف التى يهبها أهل الخير والصلاح إلى جانب ذلك فقد كان هناك ما يسمى "الشريعة" وهى الخيمة التى تنصب فى القرية لتعليم أطفالها ، وكان هناك أيضا الكتاب أو ما يسمى الـ (مسيد) وهى تحريف لكلمة مسجد وكان يفد عليه الأطفال من ذكور وأناث وتركز التعليم على القرآن الكريم ، والحديث والعلوم العربية والإسلامية ٠ وإلى جانب ذلك فقد بنى الأتراك بعض المدارس ومع كل ذلك فإنه يمكن القول أن الجزائر عانت مثل بقية بلاد المسلمين من تأخر علمى ، وعدم القدرة على الابداع حيث انحصر الجهد العلمى فى الحفظ ، وكتابة الشروحات والحواشى والتعليقات دون أن تظهر ملكة الإبداع ، كما أهملت العلوم العقلية مثل الكيمياء والطب والفيزياء وغيرها ٠

ومما سبق يتضح أن الوجود العثمانى فى الجزائر لم يكن فى يوم من الأيام وجودا إستعماريا بل هو وجود اقترنت بدايته بظروف دولية اقتضت ضرورة استنجاد الجزائر بالعثمانيين فى بداية القرن السادس عشر لاتقاء خطر الهجمة الصليبية على بلادهم ٠ كما يتضح روح المواجهة والاستبسال التى تجسدت فى عروج وأخيه خير الدين خلال الوقوف أمام عنف الهجمة الصليبية على منطقة المغرب ، وعجز واهتراء الكيانات السياسية المحلية التى كانت موجوده والتى لم تنبر للتصدى لهذا الخطر وإنما حاول بعضها

التواطؤ معه خدمة لأغراضها الذاتية وتفضيلها مصالحها الشخصية على المصلحة العامة .

وإلى جانب ذلك فقد أدت البحرية الجزائرية دورا هاما فى الدفاع عن الجزائر، وقامت بمهمتها تاريخيا على أكمل وجه ، وفى أروع صور التضحية والفداء ليس من أجل الجزائر فحسب وإنما كذلك من أجل الدفاع عن الإسلام ، والوقوف فى وجه التسلط والسيطرة الأوربية .

وعندما اختلت موازين القوى ، وتخلف الجزائر عن الركب وعجز عن المشاركة فى السباق انعكس ذلك سلبيا على قوتها العسكرية المتمثلة فى البحرية مما أدى فى النهاية إلى عدم القدرة على المحافظة على أمن البلاد ، وانتهى الأمر بالأزمة التى اندلعت بين الجزائر وفرنسا فى عام ١٨٢٧ والتى انتهت بالاحتلال الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠ .

# الفصل الثانى

## ليبيا (طرابلس الغرب) خلال الحكم العثمانى

---------

بعد أن وقعت طرابلس الغرب[١] فى يد الإمبراطور الإسبانى "شارل الخامس" فى عام ١٥١٠ ترك إدارتها لفرسان القديس يوحنا ، الذين كانوا يتخذون من مالطة مقرا لهم ·

وقد أحل فرسان القديس يوحنا بهذه المدينة الدمار ، واتبعوا مع أهلها سياسة التعصب الدينى حيث أقاموا حكومة مسيحية دينية استهدفت تغيير الوجه الإسلامى لهذا الإقليم العربى الإسلامى ، كما أنهم جعلوا من ميناء طرابلس جيبا صليبيا ينطلقون منه لضرب السفن الإسلامية التى تجوب البحر المتوسط ، وقاعدة يشنون منها غاراتهم ضد الأقطار الإسلامية المطلة على البحر المتوسط ، ولكنهم اصطدموا بالشعور الدينى الإسلامى المتأجج فى نفوس الأهالى · فقد عمد أهالى طرابلس إلى مقاومة هذه الهجمة الشرسة ضد الإسلام مستعينين فى ذلك بالمجاهدين المسلمين الذين كانت سفنهم تجوب البحر المتوسط أمثال عروج وخير الدين ، ولكن إمكاناتهم الحربية وجهودهم البشرية حالت دون ذلك خاصة بعد أن قام فرسان القديس يوحنا بتحصين المدينة ، وتدعيم قلعتها ، هذا بالإضافة إلى تحالف "الحسن الحفصى" حاكم تونس معهم ومساندتهم ، مما دفعهم إلى الاستنجاد

---

(١) سميت طرابلس الغرب للتفرقة بينها وبين مدينة طرابلس الشام ، وقد اقتصر استيلاء الإسبان وفرسان القديس يوحنا على طرابلس وما جاورها ولم يتوغلوا فى باقى أنحاء ليبيا، وترجع أهمية مدينة طرابلس لموقعها على طريق الحج من الغرب إلى مكة المكرمة، ثم من إتصالها بالطرق التجارية بين أفريقيا وأوربا ·

بالسلطنة العثمانية كما فعلت الجزائر من قبل . فأرسلوا وفدا إلى السلطان العثمانى "سليمان القانونى" يلتمسون منه المساعدة لتخليص بلادهم من الحكم الصليبى ، ويعلنون ولاءهم له ، والانضواء تحت السيادة العثمانية . وقد وافق السلطان على طلبهم حيث رأى أن الاستيلاء على طرابلس الغرب يمثل إكمال حلقة النفوذ العثمانى على أقطار المغرب العربى ، كما أن فيه إنقاذ لأهل هذه البلاد المسلمين من السيطرة الصليبية ، ومن حركة التنصير التى كان يرغب الإسبان صبغها بهم .

ونتيجة لذلك أرسل السلطان حملة إلى طرابلس الغرب بقيادة "سنان باشا" قائد الأسطول التركى فى ١٣ شعبان ٩٥٨هـ ١٦ أغسطس ١٥٥١م لفتحها وطرد فرسان القديس يوحنا منها . وقد تكونت هذه الحملة من مائة وعشرين سفينة يساندها خمسون أخرى وستة آلاف جندى ، وأربعين مدفعا. وقد قام "سنان باشا" بمحاصرة المدينة وقصف قلعتها حتى اضطرت إلى الاستسلام ، وفتح أبوابها للأتراك ، وإجبار فرسان القديس يوحنا على مغادرتها واللجوء إلى مالطة .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت طرابلس ولاية عثمانية ، وقاعدة للأسطول العثمانى فى البحر المتوسط ، ومرسى للعثمانيين يربط البحر المتوسط بطرق القوافل المتجهة إلى الصحراء ، وإلى أفريقيا السوداء جنوبا بالإضافة إلى جعلها ملجأ للسفن القادمة من الغرب ، والمحملة بالحجاج وهم فى طريقهم إلى الأماكن المقدسة.

ويقسم المؤرخون الحكم العثمانى فى ليبيا إلى ثلاثة أقسام هى :

١-العصر العثمانى الأول والذى استمر فيه الحكم العثمانى المباشر لهذه البلاد. وهذه الفترة تنحصر ما بين عامى ١٥٥١/١٧١١م .

٢-حكم الأسرة القره مانلية ١٧١١-١٨٣٥م .

٣-العصر العثمانى الثانى ١٨٣٥-١٩١١م ٠

وفيما يلى نعرض لذلك :

## أولا : العصر العثمانى الأول :

بعد فتح العثمانيين لطرابلس ، قام "سنان باشا" بتنظيم شئونها ، فوضع على قلعتها حامية كبيرة من الإنكشارية وقام بإصلاح شئون إدارتها ، ثم اتجه بعد ذلك إلى استنبول حيث صدر فرمان سلطاني بتعيين "مراد أغا" فكان بذلك أول الولاة العثمانيين هناك ٠

وقد واجه "مراد أغا" فى مستهل عهده مشاكل عديدة كان أبرزها العمل على إعادة تعمير المدينة ، وترميم القلعة ، وتنشيط الحياة العامة فى البلاد ، بعد ما تعرضت له من أضرار فادحة خلال العهد الإسبانى وعهد فرسان القديس يوحنا ٠

وقد عمل "مراد أغا" على إعادة الاستقرار إلى طرابلس ، فدعا سكانها الذين هجروها خلال حكم فرسان القديس يوحنا للعودة إليها ، وشجعهم على العمل فى استثمار الأرض الزراعية ، وإنشاء البساتين كما شجعهم على العمل فى الصناعة مما أدى إلى عودة الحياة إلى مرافق المدينة ، كما نجح فى زيادة رقعتها بضم بعض المناطق الجنوبية القريبة منها ٠

وقد اهتم مراد أغا بالناحية الدفاعية للمدينة ، مما أفشل الخطط الصليبية لاستعادتها ٠

واستمر مراد أغا فى حكم طرابلس حتى عام ١٥٥٦م حيث أدركته الشيخوخة، وأخذ منه العجز كل مأخذ فانسحب إلى "تاجوراء" ، وأنشأ مسجده المشهور بها ٠ ويقال إنه استعان فى بنائه بالأسرى الذين كانوا لديه ، ثم أحسن إليهم وأطلق سراحهم بعد إتمام المسجد الذى أقامه على ٤٨ عمودا

وجعله على شكل حصن ، ويعد هذا المسجد من أهم المعالم الأثرية الإسلامية القائمة فى ليبيا •

وفى أعقاب وفاة "مراد أغا" صدر أمر سلطانى بتعيين "درغوث" باشا" واليا على طرابلس الغرب فى عام ٩٦٢هـ/١٥٥٦م وقد كان أكثر اهتماما بالنواحى المعمارية فى طرابلس التى جعل منها عاصمة فى الشمال الإفريقى، والقاعدة الكبرى لعملياته البحرية الموجهة إلى المنطقتين الوسطى والغربية من البحر المتوسط • وقد عظمت قوة طرابلس بعد أن اتخذ منها "درغوث" قاعدة لعمله الموجه إلى مهاجمة الدول الصليبية ، ورد الأخطار عن ديار الإسلام ، واستخلاص المناطق الواقعة تحت السيطرة الصليبية •

وقد نجح "درغوث" فى القضاء على ما تبقى من فلول فرسان القديس يوحنا فى طرابلس ، ومد النفوذ العثمانى إلى معظم السواحل الليبية • ونتيجة لذلك شهدت طرابلس إنتعاشا بعودة السيادة الإسلامية إليها فقد عاد إليها سكانها الذين كانوا قد هجروها ونزحوا منها إلى الضواحى أثناء الاحتلال الإسبانى وفرسان القديس يوحنا وعادت إليها الحياة نتيجة ازدهار الحركات العسكرية بها ، وانتقال بعض الجنود المشارقة إليها ضمن القوات العثمانية• وقد حرص العثمانيون على أن يجعلوا منها قاعدة بارزة لأسطولهم ، وانصبت فيها الغنائم والسبايا والأسرى • وعادت من جديد إلى الاتصال بالمدن الإسلامية • وقد انصرف إهتمام "درغوث" فى تقوية وسائل الدفاع عن المدينة فعمل على تدعيم أبراجها فأقام "برج الـتراب" على الجانب الشمالى الغربى من سور المدينة الأصلى ، كما أنشأ مسجده المعروف فى عام ١٥٥٤م والذى لا يزال قائما حتى الآن ، وبنى لنفسه قصرا كبيرا كما أنشأ دارا للبارود ما تزال آثارها قائمة حتى الآن •

وعلى الرغم من الظروف الحربية التى واجهت "درغوث" فإنه استطاع تطوير مدينة طرابلس وتجميلها مستعينا فى ذلك بالأسرى الذين كانوا فى حوزته .

ونتيجة للتحصينات التى أقامها "درغوث باشا" لم يعد فرسان القديس يوحنا يفكرون فى الهجوم على طرابلس ، أو التفكير فى غزوها بل اتجه فكرهم إلى تشجيع الأعمال التخريبية سواء بطرابلس أو جربة .

وبعد وفاة "درغوث باشا" تولى "يحى باشا" الحكم فى طرابلس الغرب ولكنه لم يعمر طويلا فتولى الحكم مكانه "محمد بك" الذى ثار الأهالى ضده ، ولم تتوقف ثورتهم إلا عندما تولى مكانه "علج على" الذى عمل على تحصين مدينة طرابلس وتقوية دفاعاتها ، فبنى برجا بهدف أن يكون مخزنا للبارود لذلك سمى بدار البارود وخلال ذلك نشط "علج على" فى جهاد الإسبان ، ورصد تحركاتهم ونقل أخبارهم للسلطان العثمانى .

وخلال تلك الفترة ، ورغبة من الدولة العثمانية فى الحفاظ على وجه هذا الأقليم عربيا وإسلاميا استمر الباب العالى فى إرسال فيالق الإنكشارية لتعزيز الحامية العثمانية لمنع أى هجوم قد يقع عليه من جانب الإسبان أو فرسان القديس يوحنا . كما اهتمت الدولة العثمانية بتحصين سواحل طرابلس. ونظرا لاستمرار فيالق الإنكشارية فى هذا الإقليم فقد تزوجوا من النساء العربيات ، وامتلكوا الأراضى الزراعية وأشجار النخيل ، وكان حصيلة هذه الزيجات نشأة طبقة عرفت باسم "القولوغلية" (١) .

---

(١) طبقة اجتماعية جديدة نشأت نتيجة اختلاط الجند الإنكشارية بالأهالى ، وكانت فى بدايتها قليلة العدد ثم سرعان ما تكاثرت وزاد نفوذها بما حصلوا عليه من امتيازات مالية وعسكرية .

وقد تعاقب على أمر البلاد فى هذه المرحلة ولاة كانوا أقل شـــأنا مـــن الولاة العظام الذين سبقوهم إلى الحكم ، كما واجه الحكام المتعاقبون سلسـلة من الاضطرابات ، والثورات المستمرة التى كان يثيرها الأهالى الذين كـانوا يرفضون دفع الضرائب المفروضة عليهم ، واستمرت الأمور علـــى هـذا المنوال حتى وصل "أحمد القره مانلى" أحد رجال الإنكشارية إلـــى أريكـة الحكم ·

**ثانيا : عهد أسرة القره مانلى : ١١٢٣-١٢٥١هـ / ١٧١١/١٨٣٥م**

أسس هذه الأسرة أحمد القره مانلى ، وهو سليل أسرة تركية تنتمى إلى بلدة قره مانيا الواقعة جنوبى هضبة الأناضول بآسيا الصغرى ، وكان يمتلـك شخصية قوية طموحة واسعة الحيلة ساعدته على أن يتغلب على كثير مـــن المصاعب التى تعرض لها · فقد وقف موقف المتفرج من الخلافـات التـى كانت قائمة بين الباشا والديوان وجند الإنكشارية والقولوغلية ، وأظهر عـدم انحيازه لأى فريق ، حتى فاز برضاء الجميع وتمكن من نيل رضا العديد من الجند الإنكشارية وأعضاء الديوان بل ومعظم أعيان طرابلس حتى أجمعـــوا على تولية واليا على طرابلس ١١٢٣هـ/١٧١١م بدلا من الوالى المعين من قبل السلطان ، والذى كان غائبا عن البلاد وقتذاك · ومع ذلك فقـــد ظلـت الصعوبات تواجه "أحمد القره مانلى" فى الخارج والداخل ، فمـــن الخـارج أرسلت الدولة العثمانية حملة لتأديبه ، ولكنها فشلت فى مهمتها ممـــا جعـل السلطان "أحمد الثالث" يصدر فرمانا ثبته فيه فى حكم طرابلس ومنحه لقـــب الباشوية ، كما جعل حكمه وراثيا فى أسرته ·

أما فى الداخل فقد تمكن من القضاء على فتـــن الضبـــاط الإنكشـــارية الطامعين فى الحكم والراغبين فى بقاء مقاليد الأمور بأيديهم وذلك بعـــد أن تخلص منهم بمكيدة دبرها لهم فدعاهم إلى حفل فى منزله الريفى ثـــم أمـــر رجاله بذبحهم ·

وقد اعتمد أحمد باشا على العنصر الوطنى فى الجيش والإدارة فأوكل الأعمال الإدارية لأبناء البلاد ، وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية فيها ، كما كان يتولى بنفسه قيادة الجيش للقضاء على الاضطرابات والفتن الداخلية . وقد استطاع أن يستعيد السيطرة على إقليم فزان الذى كان بعيدا عن سيطرة السلطة الحكومية ، وبذلك تمكن من فتح طرق التجارة عبر الصحراء من أفريقيا ، وسارت القوافل بين طرابلس والمدن الإفريقية فى جنوب وغرب القارة بطريقة منتظمة .

وقد اهتم "أحمد القره مانلى" بالأسطول وأعلن الجهاد ضد السفن الأجنبية التى لا تدفع له الأتاوة ، كما قام بتدعيم سلطته وترسيخها لمواجهة كافة الاحتمالات والتهديدات التى تضمن عدم مهاجمة الشواطئ الليبية بواسطة السفن الأوربية من الخارج ، وإخماد كل محاولة لإثارة الفتن والتمرد ضد حكمه فى الداخل .. لذلك قام بإنشاء وتجديد الوسائل الدفاعية لولايته ، فبدأ بتجديد أسوار طرابلس وتقويتها ، وشرع فى إنشاء الأبراج ، وعنى بتزويد الحصون بمدافع من عيارات كبيرة ، وأرسل الأموال والهدايا إلى عاصمة الخلافة لشراء الأنواع الجيدة من الأسلحة .

وقد اتسمت علاقات "أحمد القره مانلى" مع الدول الأوربية بالعداء بسبب مهاجمته للسفن الأوربية فى عرض البحر المتوسط ، وفرض أتاوات عليها ، وكانت معظم الدول الأوربية تخضع لشروطه ضمانا لسلامة سفنها ، وكانت إنجلترا وهولندا من أوائل الدول الأوربية التى سارعت إلى دفع الأتاوة حتى تأمن على سفنها العاملة فى البحر مما أدى إلى حصوله على الأموال الكثيرة والغنائم .

وفى عهده هاجم الفرنسيون طرابلس بثلاثة عشر قطعة بحرية ردا على الإهانات التى ألحقها البحارة الطرابلسيون بالبحارة الفرنسيين ورغبة فى

إطلاق سراح أسراهم • ولكن الباشا لم يرضخ لمطالبهم رغم القصف الشديد الذى تعرضت له طرابلس من مدافع الأسطول الفرنسى •

وبالنسبة للنواحى العمرانية فقد استطاعت شخصية أحمد القره مانلى" أن تحفر بصماتها على الحركة العمرانية تتجلى آثارها الباقية فى المسجد الجميل الذى يحمل اسمه ، والذى بدأ فى بنائه عام ١٧٣١ وانتهى منه فى عام ١٧٣٧ وألحق به مقبرة ومدرسة ، وفى البيوت والمخازن التى بناها فى القلعة هذا إلى جانب إمداده لمدينة طرابلس بالماء لنفع أهلها ، وقيامه ببناء "فسقية" لسقى أهل السفن على البحر •

والحق أن أحمد باشا كان من الولاة القلائل الذين خلفوا طابعهم المعمارى على مدينة طرابلس •

ونظرا لبروز دور الأسرة القره مانلية عقدت العديد من الدول الأوربية، والولايات المتحدة معاهدات معها حتى يمتنعوا عن التعرض لسفنهم فى نظير دفع الأتاوات الباهظة والهدايا الثمينة لهم مما أكد استقلاليتهم الواضحة عن العثمانيين وأثبت أن العلاقة معهم لا تزيد عن علاقة إسمية تتسم بالولاء للسلطان العثمانى ، وترتبط بالصلات الروحية مع الدولة العثمانية ، واستمر أحمد باشا فى حكم ولاية طرابلس مدة ٣٤ عاما استطاع خلالها تثبيت حكم الأسرة القره مانلية فى ليبيا ، وتأكيد وحدة هذه البلاد وقد خلف "أحمد القرمانلى فى الحكم ابنه "محمد باشا" (١١٥٨هـ/١٧٤٥م) فقد أجمع الناس عليه لما يتمتع به من سمعة طيبة ، يضاف إلى ذلك أنه ورث حكم البلاد الليبية بعد أن استقر أمرها ، وزادت إيراداتها ، وأصبحت مهابة الجانب من الدول الأوربية البحرية فقد تسارعت هذه الدول إلى عقد المعاهدات معه ودفع الأتاوات له • وكانت هذه المعاهدات تتم دون أخذ رأى الآستانة •

ومع ذلك فلم تخل فترة محمد باشا من فتن وثورات ، كان من نتيجتها إضطراب أمور البلاد وتعرض حياة الناس وأرزاقهم للخطر ، وانتشرت أعمال اللصوصية والسلب والنهب لدرجة أن ضج الناس ، واستصرخوا الباب العالى ، وزاد الطين بلة إنقسام الأسرة القره مانلية على نفسها مثل فتنة "أحمد بن حسن كخيا" صهر الباشا وإخوته ، ومؤامرة الألبان والأرناؤوط لخلع الباشا ٠ وعلى الرغم من نجاح الباشا فى إخماد هذه الثورات فقد اعتلت صحته وانتهى الأمر بوفاته فى ٢٤ يوليو ١٧٥٤م وله من العمر ٤٥ سنة ٠

أما الحاكم الثالث من أفراد الأسرة القره مانلية فكان "على باشا" الذى تولى أريكة الحكم وعمره ثلاث وعشرون سنه ، وكان لحداثه سنة أكبر الأثر فى مشاركة قادة الإنكشارية له فى الحكم ، على أن أهم الأحداث التى عصفت بحكمه تمثلت فى المجاعة وانتشار الطاعون بين الأهالى وعجز الحكومة عن دفع مرتبات الجند والأساليب التعسفية التى لجأ إليها رجال الباشا خلال جمع الأموال من القبائل ، هذا بالإضافة إلى الأحداث التى ارتبطت بالشقاق العائلى بين أفراد الأسرة القره مانلية والخلاف بين "حسن القره مانلى" وأخيه "يوسف" الذى انتهى بمقتل الأول واستعانة بعض أفراد الأسرة بباشوات الجزائر وتونس ثم طرد الأسرة القره مانلية من الحكم وما صحب ذلك من صراع من أجل عودتها إليه ٠ كل ذلك كان له أثره على الحياة العامة فى البلاد وانتهى الأمر بصدور فرمان سلطانى بتولى "يوسف بك" أمور الولاية (١٧٩٥) بدلا من أخيه "أحمد الثانى" الذى كان أحق منه بالولاية ٠ ولتوضيح الوضع العام الذى كانت عليه ليبيا خلال هذه الفترة ، والأثر الذى خلفته الأحداث السابقة على أوضاعها الاقتصادية والبشرية والعمرانية فإن المؤرخين يتفقون على أن مدينة طرابلس قد كانت فى أسوأ حال غداة استيلاء "يوسف باشا القره مانلى" على السلطة وكان عليه أن يواجه كثيرا من المتاعب فى سبيل تأكيد حكمه وتوفير المال اللازم لمواجهة التزاماته العامه ومهما كان الرأى حول الطرق التى سلكها هذا الرجل فى

الوصول إلى الحكم إلا أن هناك اتفاقا على أن البلاد قد نعمت بشيء من الاستقرار والانفتاح على التطور الحضارى فى عهده ؛ مما كان له أثره على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية بالبلاد ٠

وقد أهتم "يوسف باشا" بتشجيع حركة الملاحة ، وإعادة تنظيم البحرية التى كانت تشكل المورد الرئيسى للبلاد ، كما أهتم بمتابعة الأحداث فى البحر المتوسط والصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا ، وقام بتشجيع حركة القرصنة التى كانت تدر على خزانته المال الذى يمكنه من تثبيت حكمه ، وخلال ذلك كانت علاقة يوسف باشا بفرنسا ودية ، مما يفسر لنا مساندته للحملة الفرنسية على مصر وترتيب أمر نقل الأسلحة والذخائر إليها من فرنسا بطريق ليبيا بعد تدمير الأسطول الفرنسى فى موقعة "أبى قير البحرية" مما أدى إلى استياء انجلترا والدولة العثمانية أيضا من موقف يوسف باشا ، ففى الوقت الذى كان يريد فيه السلطان العثمانى إخراج الفرنسيين من مصر نجد يوسف باشا يساعد الفرنسيين على البقاء فى مصر ؛ ونتيجة لاستياء الدولة العثمانية من ذلك الموقف عدل الباشا عن موقفه ، وحاول استرضاء السلطان مع الحرص على بقاء علاقاته الطيبة مع فرنسا ٠ أما عن علاقة "يوسف باشا" بالولايات المتحدة فلم تكن طيبة نتيجة لتعرض السفن الأمريكية العاملة فى البحر المتوسط لاعتراض السفن الليبية ، وإجبارها على دفع الأتاوات ٠ ونتيجة لذلك حاولت الولايات المتحدة معاقبة الباشا عن طريق حصار ميناء طرابلس وضربه بالقنابل ، ولكن ما حدث هو أن جنحت سفينة أمريكية تدعى "فيلادلفيا" على الشاطئ الليبى فى ٣١ أكتوبر ١٨٠٣ فأسرها جنود "يوسف باشا" بما عليها من بحارة ورفضوا إطلاق سراحهم إلا إذا تعهدت الولايات المتحدة بدفع الأتاوات التى تفرض على سفنها ٠

ونتيجة لقرارات مؤتمرى فينا (١٨١٥) وإكس لاشابل (١٨١٩) بتجريم عملية القرصنة البحرية وتحريمها توقفت الدول الأوربية عن دفع الأتاوات

مما أدى إلى نضوب خزانة "يوسف باشا" مما دفعه إلى الاقتراض من الأجانب ، وفرض الضرائب على الأهالى واتباع أسلوب الشدة والبطش ضد معارضيه • وانتهى الأمر بتخليه عن الحكم لابنه على فى ربيع الآخر ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م •

وقد بذل "على القره مانلى" جهوده لإعادة الأمن والنظام إلى البلاد وقام بإلغاء الضرائب التى فرضها والده •

ومع ذلك فقد استمرت الثورات ، نتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية وانتشار الفتن ، وعدم انتظام الأمور مما أدى أدى فى النهاية إلى القضاء على حكم الأسرة القره مانلية فى ليبيا تماما فى المحرم من عام ١٢٥١هـ الموافق ٢٦ مايو ١٨٣٥، وقيام الدولة العثمانية بوضع حد لهذه الأحوال المضطربة ، فهيأت لذلك حملة كبيرة مكونة من ٣٢ سفينة بقيادة "مصطفى نجيب باشا" وصلت إلى طرابلس حيث قابلها الأهالى بكل مظاهر الحماس • وقد تمكنت هذه الحملة من الاستيلاء على كل القلاع والحصون والمواقع الاستراتيجية فى طرابلس وفرض الحكم العثمانى المباشر على الإقليم حيث قرأ "نجيب باشا" أمام أعضاء الديوان الفرمان السلطانى بعزل "على باشا" وبأنه يجب أن يذهب هو وأسرته ومن يريد أن يصحبه معه إلى الآستانة ثم استقبل قناصل الدول المعتمدين بالولاية ، وأبلغهم بذلك وبذلك أعلن الباب العالى نهاية الأسرة القره مانلية •

وهكذا حكمت الأسرة القره مانلية ولاية طرابلس حكما وراثيا لم تستطع خلاله تنمية أمور هذه البلاد أو المحافظة على شئونها مما أدى إلى انتشار الفوضى والثورات والحروب الأهلية والمجاعات حتى ضاق الأهالى ذرعا بحكم هذه الأسرة وتمنوا زوالها •

**ثالثا : عهد الولاة العثمانيين بعد انتهاء حكم أسرة القره مانلى (العهد العثمانى الثانى) :**

تولى شئون ليبيا فى الفترة بين ١٨٣٥-١٩١١ وهى الفترة التى يطلق عليها العصر العثمانى الثاني ثلاثة وثلاثون واليا انصرف الولاة المتعاقبون خلال السنوات الأولى من هذه الفترة إلى إعادة السيطرة العثمانية المباشرة على البلاد ، وتدعيم سلطة الحكومة فى مدينة طرابلس والمناطق الداخلية ، هذا بالإضافة إلى تعقب شيعة الأسرة القره مانلية المعزولة ٠

وقد واجهت الحكومة العثمانية خلال هذه الفترة صعوبات جمة تمثلت فى الموقف المعادى من زعماء الداخل مما تطلب منها حشد قواتها للقضاء على عصيانهم خاصة بعد خروج بعض المناطق على سلطة حاكم طرابلس فقد "اهتم نجيب باشا" أول وال عثمانى بعد انتهاء الأسرة القره مانلية بتصفية الموالين لحكم هذه الأسرة أو إعلان طاعتهم للحكم الجديد ، ومع أن "غومة المحمودى" أحد زعماء الدواخل قد بادر بإعلان طاعته للحكومة الجديدة ، ومساندة الموقف الموالى للحكم الجديد فإن الوالى التركى لم يطمئن إليه وأودعه السجن ، كما قام بحركات قمع واسعة النطاق فى المناطق المجاورة لمدينة طرابلس خاصة ضد أهالى الساحل الذين رفضوا تسديد ما عليهم من ضرائب ، وأظهروا رغبتهم فى التمسك بالحكم الذاتى ، وأرغمهم على الاستسلام بعد أن أوقع فيهم القتل والتنكيل مما كان له أثره فى استسلام بقية المناطق المجاورة لطرابلس ٠

وقد سيطر على طرابلس خلال تلك الفترة جو عسكرى صارم تمثل فى سياسة القوة التى سلكتها الحكومة العثمانية ٠

وخلال تلك الفترة ازدادت الأوضاع سوءا بعد أن انتشر مرض الطاعون فى ليبيا ، وارتفع عدد ضحاياه ، مما أدى إلى هجرة معظم السكان للبلاد ٠

ومع كل ذلك فقد عمل بعض حكام هذه الفترة أمثال "رائف باشا" على ترقية شئون البلاد • أما الباقون فقد كان معدل ولاية الواحد منهم أقل من سنه فلا يكاد أحدهم يستقر في ولايته حتى يصدر فرمان بعزله وتولية غيره، لذلك كان الوالي يسعى بمجرد وصوله إلى البلاد في جمع أكبر مبالغ ممكنه من الأموال لأنه يعلم أن بقاءه في منصبه لن يطول • لذلك لم يهتم الولاة بأى عمل جدى في الولاية ، كما صرفوا وقتهم في إخماد الثورات التي اتسع نطاقها ، فقد تزعم "عثمان أغا" الثورة في "مصراته" وأكد "عبد الجليل سيف النصر" سيطرته على فزان ، وقاد "غومة المحمودى" الثورة ضد الحكومة في "يفرن" بالجبل الغربي هذا إلى جانب ثورات الجند بشأن عجز الإدارة عن دفع مرتباتهم •

وقد نجحت هذه الثورات في إجهاض محاولات الحكومة إعادة الاستقرار إلى البلاد ، وزاد الطين بلة تعرض البلاد للمجاعات بسبب قلة الأمطار وانتشار الجفاف، وتوقف الحصول على الأتاوات من السفن الأوربية •

ومع كل هذه المشاكل والصعوبات فإن بريق الأمل في الإصلاح لم ينقطع ، فقد قام بعض الولاة بعدد من الأعمال العمرانية والتنظيمات الإدارية والإنشاءات العسكرية توضع في سجل تاريخهم • فلما تولى "على عسكر باشا" (١٨٣٨-١٨٤٢) شئون ليبيا أتم ترميم المساجد ، وبناء دار جديدة للحكومة ، وعندما تولى "محمد أمين باشا" الحكم (١٨٤٢-١٨٤٧) اتبع سياسة التسامح مع خصومه فأطلق سراح المعتقلين وألزم الناس بالطاعة والإذعان ، وقد هيأت مدة حكمه الطويل الفرصة لإجراء بعض التنظيمات الإدارية التى شملت القضاء والإدارة والشئون المالية فتم تنظيم الأقسام الإدارية في الولاية وأنشئت المجالس المحلية ، ووضعت السجلات المتنوعة،

وأعيد تنظيم الضرائب من حيث فرضها وجمعها ، ولعل من أبرز أعماله المتنوعة إنشاء المستشفى العسكرى بطرابلس ·

وفى ولاية أحمد عزت باشا (١٨٤٨) التى تميزت بالهدوء فى بدايتها تم عمل إحصاء للسكان ، كما تم زيادة عدد أفراد الحامية وقد صرف هذا الوالى جهده إلى تحقيق التقارب مع تونس سعيا للوقوف فى وجه السياسة الفرنسية التى كانت ترمى إلى توطيد أطماعها فى الشمال الأفريقى ·

وقد تميزت فترة عزت باشا بمعارضة التغلغل الأوربى والوقوف فى وجه الأطماع الأجنبية ·

وفى ولاية "محمود نديم باشا" (١٨٦٠) والتى بلغت سبع سنوات شهدت البلاد فترة من الهدوء والأمن والاستقرار وحسن الإدارة ، فقد اهتم هذا الوالى بتطوير الأوضاع العامة فى البلاد ، وتطوير مزروعاتها ومصنوعاتها · كما قام بعمل تنظيم إدارى جديد لليبيا فأنشأ المحاكم لضمان العدل والمساواة بين الأهالى ، ففى عهده تم إنشاء المحاكم المدنية والجنائية والتجارية ، وفى عهده انشئ أول مطبعة فى طرابلس ، وصدرت أول جريدة بمدينة طرابلس باسم (طرابلس الغرب) وكانت تصدر بالتركية والعربية ، وإلى جانب ذلك فقد نظمت إدارة البريد وتم توصيل طرابلس ببعض المناطق الليبية عن طريق التلغراف وتم بناء الأسواق ودور التخزين وفى عهده تم فتح بوابة جديدة لميناء طرابلس من الناحية الغربية لعمران تلك الجهة ، وتسهيلا لسبل الاتصال بين سكان المدينة والقرى المجاورة · كما اهتم الوالى أيضا بمحاربة بعض التقاليد السيئة فأبطل ما كان يجرى فى ليلة عاشوراء من قيام بعض الرعاع من العامة بحمل شبه رأس جمل يدورون به فى أزقه وحوارى البلاد ·

وما من شك فى أن طرابلس نعمت فى عهد هذا الوالى بالكثير من الهدوء والاطمئنان ، فانتعشت فيها الحالة التجارية والاقتصادية بفضل ما أبداه من رغبة فى تطويرها والنهوض بها .

وفى عهد "الفريق على رضا" (١٨٦٧) الذى جمع فى شخصه بين قيادة القوات العسكرية ومنصب الوالى تم تطوير ولاية طرابلس وتحسين أحوالها وتنفيذ بعض المشاريع الهامة مثل تسوية الطرق والمعابر فى داخل المدن وخارجها وتنظيم شئون البريد ، ومد أسلاك التلغراف برا من طرابلس إلى الخمس ثم إلى الحدود التونسية ، وتشجيع حفر الآبار الارتوازية وربط الأودية ومدها بالترع والسواقى ، وتأسيس سوق العزيزية والحديقة العمومية وإنشاء الساعة التى ما تزال قائمة حتى الآن بميدان الساعة بطرابلس ، والتى تعد من المعالم الأثرية الباقية التى توضح قدرة هذا الوالى على تجميل هذه المدينة وتحسين أحوالها لدرجة أنه حظى بتعاطف وإعجاب الأهالى .

وفى ولاية أحمد راسم شهدت طرابلس اهتماما واضحا وحركة واسعة من النمو والتطوير ، فازداد النمو فى مبانيها ، وتم تبليط شوارعها ، كما قام بحفر بئر للمياه لتسهيل حصول الأهالى على الماء .

وإلى جانب ذلك أنشأ أحمد راسم مستشفى للغرباء فى عام ١٨٨٣ كما تم فى عهده إنشاء الرصيف الذى عرف باسم رصيف سوق الثلاثاء بهدف حماية هذه المنطقة وأسواقها ومتاجرها من هيجان البحر .

لقد كان الأثر العمرانى الذى خلفه أحمد راسم باشا على طرابلس واضحا ، ولا شك فى أن أعماله العمرانية واهتمامه بمدينة طرابلس وتطويرها وتجميلها تضعه ضمن الولاه الذين تركوا أثرا فى الحياة العامة بليبيا ، فقد نعمت البلاد فى عهده بنوع من الاستقرار وشهدت تطورا واضحا فى كافة مرافقها ، وازدهرت بها الحياة الاقتصادية والتجارية .

[illegible] مين باشا الذى استمر فى الاهتمام بالتجهيزات [illegible] ، ووجد صعوبة فى فرض التجنيد الإجبارى ومن الإنشاءات الهامة التى تمت فى عهده تأسيس مدرسة الفنون والصنائع وتأمين موارد المياه .

وفى عهد الوالى حافظ باشا تم العمل على تنظيم الإدارة ، وعلى الرغم من ذلك فقد تعاقب على حكم ليبيا مجموعة من الولاة تفاوتت مدة حكمهم طولا وقصرا ومع ذلك لم يتركوا أى أثر فى الحياة العمرانية يذكر لهم .

ولعله من الطريف أن نذكر أنه بعد قيام الثورة فى تركيا وسقوط السلطان عبد الحميد استقبل أهالى طرابلس ذلك بترحاب كبير ورأوا أن الفرصة سانحة لحصول بلادهم على نوع من الاستقلال فقاموا بإجراء إنتخابات لاختيار ثمانية أعضاء يمثلون ولايتهم فى مجلس المبعوثان بالاستانة ، ولكن خاب أملهم بسبب سياسة الاتحاديين الذين اتبعوا الأسلوب المركزى فى الحكم وعينوا فى ليبيا موظفين غرباء لا يعرفون لغة أهل البلاد، وحاولوا فرض سياسة التتريك التى كانت إحدى السمات الأساسية لحكمهم .

وهكذا لم يرتبط الحكم العثمانى فى ليبيا بسياسة واضحة ومرسومة لحكم البلاد وتنميتها والأخذ بيدها ، بل كان هذا الحكم فى مجمله غير قادر على إدارة هذه البلاد بطريقة سليمة خاصة وأن كل هم العثمانيين كان جمع الضرائب فى وقت قلت فيه الأموال فى أيدى دافعيها . يضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية لم تقم بإصلاحات تذكر فى هذه الولاية لتحسين المواصلات أو التعليم أو للقضاء على الأوبئة والاهتمام بالصحة العامة ، وفضلا عن ذلك فإن النظام الإدارى فى هذه البلاد صار موزعا بين رؤساء الأسر الكبيرة والشيوخ ، وكان من هؤلاء السنوسيين الذين اختصوا بالأمور المحلية فى العديد من المناطق التى قامت فيها الزوايا السنوسية خصوصا فى فترة العهد العثمانى الثانى . فكان رجالات الدعوة السنوسية بمثابة همزة الوصل بين

العثمانيين والأهالى ، فقد قبل الأهالى الزعامة السنوسية كممثلة لهم ونا...
باسمهم ، واعترفت الحكومة العثمانية بالأمر الواقع وتقربت منه، فكان ...
أول اعتراف رسمى بالسنوسية فى فرمان أصدره السلطان عبد المجيد الأول
(١٨٥٦) سمح فيه للسنوسيين بجمع ضريبة دينية مـــن أتباعـــهم ، وأعفـــى
زواياهم من الضرائب ، كما ثبت الســـلطان عبـــد العزيـــز (١٨٦١) هـــذه
الامتيازات وسمح بأن تكون السنوسية "حمى" يمكن للناس أن تحتمي فيـــه ،
وفى نفس الوقت كان حرص السلطان عبد الحميد (١٨٧٦) على بقاء علاقات
المودة مع السنوسيين ، وفى نظير ذلك تكفلت الحركة السنوسية بمهمة جمـــع
الضرائب من الأهالي فى المناطق النائية ، كما اعـــترفت بفكـــرة الخلافـــة
العثمانية والدعاء للسلطان العثمانى على منابر المساجد يوم الجمعـــة علـــى
اساس أن الإسلام لم يفرق منذ ظهوره بين الدين والدولة لذلك فإنه يحـــق لآل
عثمان الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية ، وبذلك يصبح السلطان العثمانى
خليفة للمسلمين ويحق له تدبير شئون الدنيا للمسلمين إلى جانب شئون الدين .

ونتيجة لذلك عظم شأن السنوسيين ، وزاد أتباعهم بين كبـــار رجـــال
الدولة العثمانية وكان من أثر ذلك ازدياد سطوة السنوسية فى برقة وطرابلس
لدرجة أصبحت معها السلطة الفعلية دينيـــة وزمنيـــة بيـــد شـــيوخ الزوايـــا
السنوسية. واستمرت الأمور على ذلك حتى ساورت السلطان عبد الحميـــد
الشكوك فى نوايا السنوسيين نتيجة لوشايات بعض الأوربيين ضدهم لدرجـــة
أصدرت معها الدولة العثمانية أوامرها إلى موظفيها بجمع ضرائب على مـــا
تنتجه أراضى الزوايا ولكن السنوسيين رفضوا ذلك بقوة مما جعل الحكومـــة
العثمانية تعدل عن ذلك .

وعلى أى حال فإنه نتيجة لضعف الدولة العثمانية واضطراب أحوالـــها
تطلعت إيطاليا للسيطرة على ليبيا ومهدت لذلك بتغلغل نفوذهـــا الاقتصـــادى
والثقافى فحصلت على امتياز بفتح فرع لبنك روما فى كـــل مـــن طرابلـــس

وبرقة عام ١٩٠٥ ذلك البنك الذى لم يقتصر دوره على الأعمال البنكية ، بل نشط فى عمليات الرهن والتسليف مع الأهالى ، وإقراض الأموال لأصحاب الأراضى الزراعية ثم سلبها منهم ، كما فتحت إيطاليا المدارس المجانية فى ليبيا بقصد نشر الثقافة الإيطالية ، وأنشأت المستشفيات والملاجئ للمرضى والفقراء ، وأنشأت مكتبا للبريد فى بنغازى وإلى جانب ذلك قامت بإرسال البعثات العلمية لاكتشاف المناطق الداخلية فى ليبيا ومسح أراضيها هذا فى الوقت الذى لم تقم فيه الدولة العثمانية بأى عمل جدى لوقف التوغل الإيطالى فى ليبيا .

ولكى تبرر إيطاليا أهدافها الاستعمارية فى ليبيا بدأت بالتنديد بسياسة الأتراك فى ليبيا ، وطالبتهم بضرورة إصلاح أحوال هذه البلاد ، والنهوض بها . وبعد أن تهيأت الأذهان أمام سيطرة الإيطاليين على ليبيا طالبت إيطاليا الدولة العثمانية فى سبتمبر ١٩١١ بعدة مطالب لها فى ليبيا هى :

١- خروج العساكر العثمانية من طرابلس وبنغازى ودرنة .

٢- تشكيل قوات عسكرية فى هذه المناطق تحت قيادة ضباط إيطاليين .

٣- أن تكون إدارة الجمارك فى ليبيا تحت أيدى موظفين إيطاليين .

٤- أن يتم تعيين والى طرابلس بموافقة إيطاليا ورضاها .

ولم تكتف إيطاليا بذلك بل وجهت إنذارا إلى الدولة العثمانية تتهمها فيه بعدم النهوض بليبيا ، وتجاهل رغائبها فيها ، ومعارضة مشروعاتها هناك رغم مصالحها الحيوية فى هذه البلاد ، هذا إلى جانب قيامها بتحريض الأهالى على الرعايا الإيطاليين بخاصة ، وعلى الرعايا الأجانب على اختلاف جنسياتهم بعامة مما جعلهم يخشون على حياتهم ، ويشرعون فى الهجرة من هذه البلاد . ونتيجة لذلك فإن الحكومة الإيطالية مضطرة حرصا على مصالحها وشرفها إلى إحتلال طرابلس وبنغازى إحتلالا عسكريا وقد

صدرت الأوامر إلى السفير الإيطالى فى الآستانة بالحصول على رد من الحكومة العثمانية على هذا الإنذار فى مدة أربع وعشرين ساعة وإلا فإن الحكومة الإيطالية مضطرة إلى إحتلال ليبيا ٠

وعند تحليلنا لهذا الإنذار نجده يثير الدهشة والاستغراب ولانجد سببا واحدا معقولا من الأسباب التى وردت فيه يدعو إيطاليا إلى القيام بهذا العمل العدائى ٠ فهل من المنطقى أن تهدد إيطاليا باحتلال المدن الليبية لأن الدولة العثمانية لم تعمل على النهوض بهذه البلاد ٠ وهل من المنطق أن تهدد إيطاليا بالاستيلاء على ليبيا لأن الدولة العثمانية لم تمنحها إمتيازات إقتصادية ، تناقض حقوقها فى هذه البلاد ٠

وللإجابة على ذلك نجد أن إيطاليا استغلت ضعف الدولة العثمانية وانشغالها وسوء أحوالها فى تحديها والإفتراء عليها ، كما أنها أرادت أن تحول أنظار الشعب الإيطالى إلى الخارج حتى تبعده عن التفكير فى مشاكل بلاده الداخلية ٠

وكان رد الدولة العثمانية على هذا الإنذار ضعيفا حيث حاولت التنصل من إتهامات إيطاليا لها ، وأظهرت حسن نيتها تجاه الإيطاليين ومشروعاتهم الاقتصادية فى طرابلس وبرقة ، ودعت إلى إجراء مفاوضات بين البلدين بهدف تجنب الحرب، وحسم النزاع بينهما بالطرق السليمة مقابل أن تعطى إيطاليا مركزا ممتازا فى ليبيا، كما قامت الدولة العثمانية بإرسال برقيات إلى الدول الأوربية تطلب منها التوسط فى الأمر ، ولكن إيطاليا رفضت كل هذه المحاولات ، وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية فى ٢٩ سبتمبر ١٩١١ وبدأت فى محاصرة طرابلس مدة ثلاثة أيام حتى سقطت بعد قتال غير متكافئ حدث خلاله مجزره بشريه تمثلت فيها أفظع أدوار الهمجية وبعدها تم للإيطاليين احتلال الموانئ والنقط الساحلية فى ليبيا فى أكتوبر ١٩١١ أما

باقى المناطق فقد ظلت فى أيدى القوات الوطنية التى وقفت للإيطاليين بالمرصاد ٠

وقد واجه المجاهدون الجيش الإيطالى فى معارك طاحنة استبسلوا فيها ولكن الفارق فى التسليح والإمكانات كان له أكثر الأثر فى حسم المعركة لصالح إيطاليا ٠

وبعد أن عجزت الدولة العثمانية عن مد يد العون الفعلية إلى الأهالى وفشلت قواتها فى مواجهة الموقف إضطرت إلى عقد معاهدة "أوشى لوزان" مع إيطاليا والتى انسحبت بمقتضاها من ليبيا فى ١٨ أكتوبر ١٩١٢ وتركتها لقمة سائغة للإيطاليين ، كما تركت أهلها يقاومون الجيش الإيطالى بمفردهم مقاومة عنيفة لأكثر من ثلاثين سنة ٠

وبهذه المعاهدة خرجت الدولة العثمانية من ليبيا تاركة الزعامة السنوسية تقف بمفردها فى مقاومة الاستعمار الإيطالى مما كان له أكبر الأثر فى تطور الموقف فى غير صالح الليبيين ، هذا عن تاريخ ليبيا فى العصر العثمانى وحتى سقوطها تحت براثن الاحتلال الإيطالى ويبقى لدينا فى هذا الفصل التعرض لنظام الحكم العثمانى ولأحوال هذه البلاد الاقتصادية والاجتماعية فى ظله ٠

## ١- نظام الحكم العثمانى فى ليبيا

كان لموقع هذه الولاية من الممتلكات العثمانية ، وبعدها عن مقر السلطة أكبر الأثر فى رغبة الحكومة العثمانية إلى قصر مدة الوالى مخافة أن يستقل بالبلاد ، مما جعل الولاة لا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة لذلك لم تشهد طرابلس خلال الحكم العثمانى أى سياسة متكاملة يمكن أن يطلق عليها حركة عمرانية ٠ حقيقة أنه خلال فترات الهدوء والأمن تعاظمت بعض الأعمال العمرانية ولكنها كانت فردية فقد اهتمت الدولة العثمانية بإقليم

طرابلس الغرب عسكريا ولم تهتم به مدنيا ، كما اقتصرت عناية بعض الولاة منه على بعض المدن الساحلية ولم تشمل المناطق الداخلية مما أضعف الإدارة العثمانية فى الداخل ، وأدى إلى أضعاف الثقة بين الحاكم والمحكوم وتعكير صفو الحياة الهادئة فى كثير من الأحيان ، وانحدار هيبة الوالى ، وكثرة الفتن والثورات خاصة فى مناطق القبائل • لقد أديرت ولاية طرابلس الغرب من قبل وال يساعده نائب يسمى "الكاهية" و"خازندار" يختص بشئون الخزينة ، إضافة إلى الكتبة ، والمستشارين ، وقاضى الجند ، والموظفين الإداريين ووكيل الجباية والخراج وإلى جانب هؤلاء كان القضاة الذين يرسلون من استنبول •

وقد قسمت ولاية طرابلس إلى قسمين الأول طرابلس ويضم المنطقة الغربية وفزان ، والثانى بنغازى ويضم المنطقة الشرقية • وقد مرت طرابلس بفترات قوة وفترات ضعف فعندما تكون سلطة الحكومة قوية تزدهر حالات الاستقرار وتتزايد الأعمال العمرانية ويتم بناء المساجد والمدارس وغيرها وعندما تصبح الحكومة ضعيفة تنتشر الثورات الداخلية ، ويصعب السيطرة على زمام الأمور وتسخر كل الجهود لإعادة النظام • ومع كل ذلك فقد نظر الأهالى للعثمانيين نظرة حماة الإسلام الذين دفعوا عنهم شر الهجمات الصليبية سواء من الإسبان أو فرسان القديس يوحنا •

وبالنسبة للضرائب وطريقة جبايتها فقد تم تنظيمها وفقا للأعراف السائدة ، والطرق المتفقة مع الشريعة الإسلامية ، فطبقت ضريبة العشر ، والخراج ، والمكوس الجمركية ، والضريبة الشخصية وضريبة الأملاك على العقارات والدواب •

وإلى جانب ذلك فقد شكلت غنائم الجهاد والحروب البحرية ركنا أساسيا فى إقتصاديات البلاد ، فكان المجاهدون المسلمون يغيرون على السفن الصليبية ، ويوزعون ما يغنمونه منها بعد إقتطاع الخمس للحكومة •

## ٢- مظاهر الحياة الاقتصادية فى ليبيا خلال الحكم العثمانى

### أ- الزراعة

انقسمت الفلاحه فى ليبيا إلى قسمين قسم يشمل أصحاب البساتين الكبيرة والأراضى المجاورة لطرابلس وأصحاب الآبار والمياه ، وكان هؤلاء يتقنون الزراعة وخدمة الأرض ويزرعون الحبوب بكميات وافرة كلما توافر المطر ، وكان إنتاجهم يزيد عن حاجات الأهالي ، ويصدر الفائض منه إلى موانى إسبانيا عن طريق البحر . وإلى جانب ذلك فقد كان هؤلاء يزرعون كميات وافرة من الثمار وأنواع الفاكهة والحمضيات وأنواع عديدة من الزيتون .

أما القسم الآخر وهم أصحاب الأراضى من العرب الذين يأنفون العمل بالزراعة مع أن أراضيهم كانت جيدة وفى غاية الخصب ، ونظرا لعدم تطوير أساليب الزراعة البدائية فى ليبيا وغيبة سلطة الحكومة وعدم اهتمامها بأمور الفلاحين مال العديد من الأهالى إلى التجارة أكثر من ميلهم إلى الزراعة .

### ب- التجارة الداخلية

كان يوجد بمدينة طرابلس عدة أسواق نذكر منها :

- سوق الربع وكان يعد أشهر الأسواق بالمدينة ، وهو على شكل أربعة صفوف ، وعلى كل جانب من هذه الصفوف أقيمت دكاكين وبسطات متراصة تحوى مختلف السلع والبضائع مثل اللآلئ والذهب والجواهر والتوابل والعطور النادرة وغيرها من المنتجات الشرقية .
- سوق النخاسة وكان يباع فيه العبيد السود والإماء الرقيقات .
- سوق البن وهو مكان مكتظ بالمقاهى ولا يقدم فيه غير شراء القهوة ، وكان يقصده الأتراك غالبا ليرتشفوا فيه بعض فناجين القهوة .

- سوق الترك وكان يقوم التجار الأتراك والعرب فيه ببيع بضائعهم في متاجرهم الصغيرة به ، وهى سوق صغيرة بها دكاكين ذات واجهات زجاجية يستطيع المرء أن يشترى فيها معظم ما يريد • ومع أن طبيعة هذا السوق شرقية فإن أغلب الحاجيات المعروضة للبيع كانت أوربية الصنع •

- سوق الترزية وفيه يركض النساجون لبيع أقمشتهم حيث يجرى المزاد العلنى ، وفيه يجلس اليهود والمالطيون لخياطة ، وبيع الأنسجة المختلفة •

وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك أسواق للبقالة والملابس النسائية والحريرية والأوانى النحاسية والحدادة والنجارة والخبز والخضار والنعال والبنادق والمصوغات الذهبية والفضية هذا بالإضافة إلى السوق الأسبوعية المسماة باسم سوق الثلاثاء والذى كان يجتمع فيه العديد من الأهالى من أجل البيع والمبادلة وتعقد فيه الصفقات •

## جـ- التجارة الخارجية

وعلى الرغم من أن التجارة الخارجية فى هذه الفترة كانت محدودة ، فقد ظلت مدينة طرابلس على صلتها البحرية ببعض المدن الأوربية خاصة إيطاليا كما ظلت أيضا محطة رئيسية لقوافل الحجيج الكبيرة الوافدة من الغرب إلى الشرق ، والعائدة من الغرب إلى الشرق • وقد كان وصول هذه القوافل الكبرى إلى طرابلس من المشاهد الرائعة السنوية ، كما كانت إقامتها عدة أيام بها فرصة لنشاط علمى وتجارى كبير حيث كانت تشترى الحرير الدمشقى الإيطالى والمصنوعات الزجاجية البندقية وغيرها من المستوردات المتوفرة فى أسواق طرابلس ، وتبيع ما تحمله من خيوط القطن والبن والعقاقير والتوابل وغيرها من الأشياء المجلوبة من الشرق والغرب وكان الميزان التجارى مع أوربا فى عهد الأسرة القره مانلية يميل غالبا لصالح طرابلس إذ أن قيمة صادراتها كانت تزيد بواقع الثلث عن الواردات •

وإلى جانب ذلك فقد كان هناك نشاط تجارى مع بعض المناطق الأفريقية أمثال تومبكتو وبورنو ، فقد كان يأتى منهما بعض المصنوعات اليدوية منها البسط والأحزمة الحمراء ، كما كان يجرى تصدير الصوف الممتاز وجلود الماعز والضأن المدبوغة ، والفواكة المجففة وبعض التوابل هذا إلى جانب القمح والشعير والأبقار والأغنام .

### د- الصناعة

مارس السكان الصناعة التى كانت متوارثة من العهود السابقة وقد برزت فى ولاية طرابلس الغرب صناعة المنسوجات والدباغة وكانت لها أسواقها الرائجه داخليا وخارجيا .

## ٣- مظاهر الحياة العلمية والثقافية فى ليبيا خلال الحكم العثمانى

من الصعب التحدث عن حياة علمية وثقافية مزدهرة فى المرحلة المعروفة باسم العهد العثمانى الأول وهى المرحلة التى تمتد من استرداد طرابلس من الإسبان ١٥٥١ حتى قيام الأسرة القره مانلية ، فتؤكد المصادر عدم الاهتمام بأى نوع من أنواع النشاط الثقافى والعلمى خلال هذه الفترة ، خاصة وأن الحكام أنفسهم كانوا من طبقة لا صلة لها بالعلم وإنما كانوا فئه من المغامرين والبحارة الذين تمكنوا من الوصول إلى مراكز السلطة ، وقد أدى إهمال شأن العلم والعلماء إلى إنحدار المستوى الفكرى بين الأهالى الذين سيطرت عليهم الخرافات ، ومالوا إلى التصوف، والاعتقاد فى كل من ادعى الولاية بحق أو بغير حق ، ومع ذلك فقد كان للكتاتيب والزوايا دورها فى نشر التعليم الدينى ، وبالنسبة لعصر الأسرة القره مانلية فقد بنى أحمد القره مانلى مدرسة بجوار مسجده كانت ذات أثر ملموس فى إنعاش الحياة العلمية فى البلاد .

وبالنسبة لمظاهر النهضة العلمية خلال العصر العثمانى الثانى فتحصر فى جهود أحمد باشا راسم فى تطوير حركة التعليم والوقوف فى وجه المدارس الأجنبية من إيطالية وفرنسية والإرساليات التى كانت تسعى إلى اجتذاب العناصر المحلية وصبغها بثقافتها .

وقد اشتهر من فقهاء الإسلام فى طرابلس خلال هذه الفترة الفقيه "أبى على الحسن بن موسى بن معمر الهوارى الطرابلسى" وأحمد بن عبد الحميد اليربوعى كما تنحصر فى جهود نامق باشا الذى تأسست مدرسة الفنون والصنائع فى عهده ، وصدرت فى عهده جريدة الترقى لصاحبها "الشيخ محمد البوصيرى" ومجلة الفنون لصاحبها "داود أفندى" وقد حملت هذه الصحف لمحات من الروح الثقافية التى كانت سائدة بين المثقفين فى ذلك الوقت ، وعبرت إلى حد كبير عن المشاكل والقضايا التى تشغلهم وأسهمت بشكل واضح فى تطوير الحركة الثقافية فى البلاد .

وفى جهود الوالى حافظ باشا الذى شهد تطور التعليم فى عهده دفعة كبيرة إلى الأمام فأسس دارا للمعلمين ، ومدرستين كبيرتين ، ومدرسة للبنات، وإلى جانب ذلك فقد أسس العديد من المدارس الابتدائية فى بعض المناطق الليبية .

ولم تقتصر مظاهر الحياة الثقافية والعلمية على الولاه العثمانيين بل قامت إيطاليا بإنشاء العديد من المدارس وتمويلها فأنشأت مدرسة فنية تجارية عالية ، ومدرستين ابتدائيتين واحدة للبنين ، وأخرى للبنات ، وروضة أطفال للبنين وأخرى للبنات ، وكانت للجالية اليهودية أيضا مدارسها .

وهكذا يتضح أن كل محاولات الدولة العثمانية لتنظيم شئون ليبيا لم تؤت كلها بالمرجو منها ويرجع ذلك لعدة أسباب نذكر منها :

١-أن العثمانيين سيطروا على المناطق الساحلية فى ليبيا ولم يـهتموا بالدواخـل ، وعلى هذا أهملت المناطق الداخلية ولـم تلـق مـن الحكومة العثمانية إهتماما واضحا ٠

٢- أن أغلب مدة الولاة العثمانيين فى ليبيا كانت قصيرة لذلك انشـغل معظمهم بتحقيق مصالحهم الذاتية دون الاهتمام بمصالح الأهالى ٠

٣-كثرة الحروب الداخلية خاصة فى عهد الأسرة القره مانلية وانتشـار الأوبئة خاصة مرض الطاعون ، وعدم نجاح الحكومة فى السيطرة عليه ، وخاصة وأن اهتمامها بالنواحى الصحية كان ضئيلا ٠

٤-الإجحاف فى فرض الضرائب علـى الأهـالى ، وسـوء طريقـة تحصيلها منهـم ٠

هذا إلى جانب أن العثمانيين لم يتمكنوا من خلق روح الولاء لهم فـى ليبيا خاصة وأن أهل ليبيا تمسكوا بالولاء للروح العربية بدلا مـن الـولاء للعثمانيين خاصة وأن بلادهم تعرضت للكثير من حالات النهب على يد الولاة العثمانيين والمقربين منهم ومع كل ذلك فقد استفاد أهل هذه الولايـات فـى تقوية الحياة الدينية الإسلامية خاصة وأن الحكام العثمانيين حـافظوا علـى المشاعر الإسلامية للمواطنيين العرب المسلمين فشاركوهم فى الاحتفـالات الدينية ، ومراعاة الشعائر الإسلامية هذا بالإضافة إلى المحافظة على عروبة وإسلام هذه المناطق من الأطماع الصليبية ٠

# الفصل الثالث

# تونس تحت الحكم العثمانى

------

كانت تونس الخضراء مقرا للولاة العرب فى المغرب ، كما مثلت دورا بارزا خلال حكم الأغالبة فالعبيديين فالحفصيين ٠

وبعد أن أدار الفلك دورته ، وكشر الزمن عن أنيابه تنازع تونس الفوضى ، وأصبح الضعف والتفكك السياسى إحدى سماتها البارزة خاصة بعد اعتلاء "محمد بن الحسن الحفصى" العرش فى عام ٨٩٩هـ/١٤٩٣م حيث خرجت مدينة القيروان والعديد من المدن من تحت سيطرته ، وفى أعقاب وفاته تنازع الإسبان والعثمانيون السيطرة عليها ، وتمكن الإسبان من الاستيلاء على بعض ثغورها ٠

وبعد أن دخلت الجزائر فى حوزة العثمانيين كان من الضرورى أن تكون وجهة الأسطول العثمانى تونس لتكون كقاعدة عمليات إضافية للعثمانيين خاصة وأن الإمبراطور شارل الخامس ملك إسبانيا كان قد تحالف مع فرسان القديس يوحنا فى مالطة وطرابلس ضد المسلمين ٠

ونتيجة لذلك رأى السلطان سليمان القانونى أنه من أجل تأمين قواعد قواته فى البحر المتوسط ، وترسيخ وجودها فى الجزائر لابد من السيطرة على تونس ، وشجعه على ذلك أن أحد المطالبين بعرش الحفصيين فى تونس قد لجأ إلى الآستانة طالبا المساندة العثمانية لاستعادة عرشه ٠ وبعد أن هيأ السلطان الأمر لذلك استدعى "خير الدين برباروسا" إليه فى إستانبول فى عام ٩٤٠هـ/١٥٣٣م ، وعهد إليه بإعداد العدة لفتح تونس واسترجاعها من أيدى الإسبان ، وتحويلها إلى ولاية عثمانية قبل أن يسبقه الإمبراطور شارل

الخامس فى الاستيلاء عليها • وفى أعقاب حصول بربا روسا على الدعم الكامل والإمدادات اللازمة من السلطان توجه بالأسطول العثمانى المؤلف من ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندى إلى منطقة "بنزرت" فى غرب تونس حيث حظى هناك باستقبال طيب من الأهالى ، ومن "بنزرت" توجه الأسطول العثمانى إلى منطقة "حلق الوادى" فى عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م ودخل "خير الدين" بقواته إلى العاصمة التونسية التى تركها حاكمها "الحسن الحفصى" وفر هاربا مستنجدا بأعراب الصحراء • وفى أعقاب ذلك أعلن "خير الدين" نهاية حكم الحفصيين ، كما أعلن تبعية تونس للدولة العثمانية ، ووجوب الطاعة له بحكم كونه ممثلا للسلطان العثمانى مما قلب موازين الأمور ، وزاد من حدة الصراع الحربى بين العثمانيين والإسبان الذين كانوا يدركون أهمية تونس العسكرية ، وتحكم موانيها فى المواصلات البحرية فى منطقة البحر المتوسط، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس ، وقربها من إيطاليا ، ومجاورتها لجزيرة مالطة • ومع كل ذلك فإن الأمر لم يستقر لخير الدين تماما فسرعان ما واجه العديد من المشاكل من أهالى تونس الذين تمردوا عليه نتيجة للتنظيمات التى أدخلها فى بلادهم • ومن أجل حفظ النظام والأمن وزع "خير الدين" قواته فى كافة أنحاء البلاد • وبينما كان "خير الدين" يوطد سلطانه فى تونس لجأ "الحسن الحفصى" إلى "شارل الخامس" ملك إسبانيا طالبا العون ضد "خير الدين" والعثمانيين• وقد استجاب "شارل الخامس" لمساندة "الحسن الحفصى" ، وكلف قواته بوضع الخطط العسكرية للاستيلاء على تونس واستعادة التحكم فى المواصلات البحرية فى البحر المتوسط •

وفى ذى القعدة ٩٤١هـ / مايو ١٥٣٥م أقلعت حملة عسكرية من برشلونة مكونة من ٤٥٠ سفينة ، ٢٦٥٠٠ رجل ، واتجهت إلى تونس حيث انضم إليها "الحسن الحفصى" بثمانية آلاف رجل وعلى الرغم من المقاومة الشديدة التى واجهتها قوات شارل فقد تمكنت من الاستيلاء على تونس ، مما اضطر "خير الدين" إلى الانسحاب إلى الجزائر •

وبعد أن دخل "الحسن الحفصى" مدينة تونس أباح البلاد لعمليات السلب والنهب والانتقام لمدة ثلاثة أيام ، وفى أعقاب ذلك وقع "الحسن الحفصى" مع "شارل الخامس" معاهدة تخلى خلالها عن "حلق الوادى" و"قرطاجنه" و"مدن عنابه" و"بنزرت" و"المهدية" للإسبان ، كما منحهم حق الإقامة والتجارة وممارسة شعائرهم الدينية دون أى تضييق .

وبذلك أصبحت تونس تحت السيادة الإسبانية المطلقة ، وتولى "الحسن الحفصى" حكمها باسم شارل الخامس مما كان له أثره السلبى لدى العثمانيين ومجاهدى شمال أفريقية .

وقد رد "خير الدين" على ذلك بغارة مفاجئة على "جزر البليار" واستولى منها على سته آلاف أسير وعاد بهم إلى قاعدته فى الجزائر .

وخلال ذلك ثار أهالى تونس على بنى حفص لتواطئهم مع "الإمبراطور شارل الخامس" واندلعت عدة ثورات داخلية ضدهم اضطر بعدها "الحسن الحفصى" إلى الرحيل عن تونس طالبا المساعدة من أوربا ، وفى هذه الأثناء ظهر قائد بحرى من العثمانيين هو "درغوث باشا" واستطاع أن يتخذ من طرابلس قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الدينى البحرى فى شمال أفريقية ، واستولى على ميناء قفصة فى عام ١٥٥٦م وتوغل فى الداخل حتى وصل القيروان واحتلها ، وأقام فيها حامية فى عام ١٥٥٨م . ولكن ظل الإسبان يسيطرون على سواحل تونس بمعاونة عملائهم من الحفصيين .

وخلال ذلك رأى السلطان سليمان القانونى ضرورة الاستيلاء على مالطة نظراً لأهميتها فى الصراع العسكرى بين العثمانيين والإسبان حول تونس ، فأرسل أسطولا ضخما يحمل ثلاثين ألف جندى تحت قيادة "مصطفى باشا" لمحاصرة الجزيرة ، ولكنه لم يتمكن من دخولها . فبعد حصار أربعة أشهر تكبد العثمانيون خسائر كبيرة فى الرجال والعتاد ، وارتدوا على أعقابهم .

واستمرت الأحوال فى تونس كما هى حتى تولى "علج علـــى" أريكـــة الحكم فى الجزائر فقاد حملة لتخليص تونس من الحكم المتعاون مع الإســبان نجح خلالها فى هزيمة القوات الحفصية ودخول تونــــس فـــى نهايـــة عـــام ٩٧٧هـ /١٥٦٩م حيث أخذ البيعة للسلطان العثمانى ٠

ونظراً لأهمية موقع تونس عمل "علج على" على تقوية حاميتها قبـــل مغادرته لها فترك بها جيشا مكونا من خمسة آلاف رجل موزعين على عـدة كتائب سميت بالأوجاق يحكمها جميعا قائد باسم "أوجاق باشى" كما تم تعييـن القائد "رمضان" حاكما عاما لتونس ، وبعدها غادر "علج على" تونس متوجها إلى الجزائر فى رمضان ٩٧٩هـ / ١٥٧٠م ٠

وبعد معركة ليبانتو البحرية ٩٧٩هـ/١٥٧١م التى هزم فيها العثمانيون ودمر أسطولهم سارعت إسبانيا للاستيلاء على تونس ونجحت فى ذلك خاصة وأن حاميتها كانت قليلة العدد بالنسبة للقوات الإسبانية ، كما استباح الإســبان "جامع الزيتونة" ونهبوا خزائن الكتب الموجودة به ٠ ونتيجة لذلـــك أرسـلت الآستانة أسطولا مكونا من ثلاثمائة مركب مشحونه بالجند ، لاستعادة تونـــس وإحياء روح الجهاد بين أهلها ٠

وقد تمكن "سنان باشا" والقبطان "علج على" من استردادها فــــى عــام ١٥٧٤م ، وإبادة الحامية الإسبانية هناك ، وإنهاء حكم الحفصيين المتعـاونين معهم ٠ وبذلك استطاعت الدولة العثمانية تحريـــر تونـــس مـــن الإســـبان ، وإعادتها إلى رحاب الكتلة الإسلامية ٠

وقبل أن يغادر "سنان باشا" تونس عمل على تنظيم شئونها ؛ وكان مـن أهم تنظيماته توفير قاعدة عسكرية تتمركز بها فترك بها أربعـــة آلاف جنـدى إنكشارى ممن كانوا برفقته لحماية هذه البلاد ، كما كون فيـــها إدارة كـــانت فرقة الإنكشارية مدار قوتها ، وأعضاؤها من المجلس الذى يرأســـه الباشـــا ممثل الدولة العثمانية يساعده ديوان استشارى مكون مـــن كبـــار الضبـــاط

والمسئولين ، وعلى رأس كل هؤلاء الباشا الذى كان يطلق عليه الأغا أو الباى وبعد أن نظم "سنان باشا" أمور تونس غادرها إلى استنبول ومنذ ذلك التاريخ تتابع على حكم تونس عدد كبير من البايات كان أشهرهم "عثمان باى" الذى حاول النهوض بالبلاد و"يوسف باى" الذى نهض بالنواحى التعليمية .

وظلت تونس يحكمها الولاة حكما مباشرا ، ويتوارثها أبناؤهم أحيانا وخلال الربع الأخير من القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر شهدت ولاية تونس اضطرابات ناتجه عن التنافس بين القادة على الاستئثار بالسلطة، وزاد من هذه الاضطرابات قيام حرب بين ولايتى تونس والجزائر ثم التنازع على الحكم فى تونس واستنجاد أفراد الأسرة المرادية بالجزائريين .

وفى وسط هذه الاضطرابات تمكن "حسين بن على" أحد رؤساء الجند من الاستيلاء على الحكم فى عام ١٧٠٥م وتأسيس الأسرة الحسينية التى حظيت بترحيب الأهالى وقواد الجند . وقد استطاع "حسين بن على" أن يعيد هيبة الحكومة، ويقضى على نفوذ العصبيات المسلحة ، وأنشأ جيشا قويا .

وتصرف البايات الحسينيون كمستقلين فى شئونهم عن الدولة العثمانية، فعقدوا المعاهدات وأعلنوا الحرب دون الحصول على موافقة السلطان ، واكتفى السلطان بالولاء الإسمى وبالدعاء له فى المساجد خلال خطبة الجمعة وضرب السكة باسمه .

وفى أوائل القرن التاسع عشر بدأت الدول الأوربية تعقد مع تونس علاقات تجارية وسياسية ، وأخذ البايات يسيرون فى طريق الإصلاح .

ونتيجة لبذخ بعض البايات وانغماسهم فى الترف ومحاولة ظهورهم بمظهر الحكام العصريين واجهت تونس مصاعب مالية ، وتراكمت الديون عليها . وعلى سبيل المثال نذكر أنه فى عصر "أحمد باى" ١٨٣٧-١٨٥٥

أنفق الكثير من الأموال فى بعض المشروعات العمرانية والإصلاحات ، وفى عمليات البذخ والترف واقتناء التحف مما أدى فى نهاية الأمر إلى التوسع فى الاستدانة ، ووقوع تونس فريسة فى أيدى الدول الأوربية واقحام الأجانب فى شئون البلاد الداخلية بحجة القيام بالإصلاحات التى أرادها الباى ، وإجبارها على إصدار ما يسمى "بعهد الأمان" الذى أعطت معظم نصوصه مزايا عديدة للأجانب منها حق العمل والملكية فى تونس • حقيقة أن هذا العهد شمل فى نصوصه العديد من المنافع ، ولكن ضرره على التونسيين كان أكثر من نفعه •

وبعد أن قررت فرنسا الاحتفاظ بالجزائر ازداد عزمها على احتلال تونس رغبة منها فى منع قيام نظام فى تونس يهدد إحتلالها للجزائر • وقد شجعها على ذلك تأييد كل من ألمانيا وبريطانيا لها • فقد رغب المستشار الألمانى "بسمارك" فى إبعاد فرنسا عن التفكير فى هزيمتها فى الحرب السبعينية وصرف أنظار الفرنسيين عن الألزاس واللورين ، وعن فكرة الانتقام لهزيمتهم بتأييد جهود فرنسا الاستعمارية خارج أوربا •

أما عن إيطاليا فإنها اعترضت على تغلغل النفوذ الفرنسى فى تونس وقاومته، وبدأت حملة دعاية قوية ضد فرنسا خاصة وأن تونس كانت محط أنظار الإيطاليين خاصة وأن هناك معاهدة بين إيطاليا والباى عقدت فى علم ١٨٦٨ كان من أهم بنودها صون مصالح الإيطاليين فى تونس والاحتفاظ بجنسيتهم هناك يضاف إلى ذلك أن المسافة بين صقلية الإيطالية وتونس لا تزيد على سبعين ميلا •

ولما بدا لفرنسا ضرورة الإسراع لاحتلال تونس بحجة أنها إمتداد طبيعى للجزائر ، اتخذت من عبور القبائل التونسية لحدود الجزائر ذريعة لضم تونس إليها• فأرسلت قواتها فى مايو ١٨٨١ إلى قرب العاصمة التونسية ، وأعلنت أن غرضها هو إقرار النظام ، ولكنها ما كادت تصل إلى

العاصمة حتى أجبرت الباى على عقد "معاهدة باردو" فى ١٢ مـــايو ١٨٨١ والتى أعلن الفرنسيون فى أعقابها الحماية على تونس بحجة المحافظة علـــى الأمن ورعاية حسن الجوار • وإلى جانب ذلك فقد كبلـــت فرنســا تونـــس بالأغلال وأصبح المقيم الفرنسى فى تونس هو صاحب الكلمة العليا ، وتولت فرنسا تمثيل تونس ، ورعاية مصالحها فى الخارج •

وقد شملت الحماية الفرنسية جميع المرافـــق فـــى تونـــس ، فانتشـــر الموظفون الفرنسيون فى المراكز الحكومية بتونس كما تحولت الكثـــير مـــن الأراضى الزراعية إلى إقطاعات تمنح للمستوطنين الفرنسيين ، وإلى جـــانب ذلك قام الفرنسيون بتجنيد المواطنين التونسيين وإعطائهم الجنسية الفرنسية ، كما حاولوا قطع صلاتهم الثقافية بالعالم العربى ، وبحضارتـــهم الإســـلامية وذلك بتأسيس نظام تعليمى يقتلع الشبان من جذورهم الثقافية • ونتيجة لذلـــك بدأت الحركة الوطنية فى تونس فى شكل حركة إسلامية ، وكانت "مدرســـة الزيتونة" معقلا لمقاومة السياسة الفرنسية ، كما بقى مسجدها حارسا للـــتراث العربى الإسلامى بالإضافة إلى أنه ظل مركزا ثقافيا ودينيا•

وظلت فكرة تقوية الروابط مع الجامعة الإسلامية التى كـــان يرددهـــا السلطان العثمانى "عبد الحميد" ملتقى أفئدة التونسيين ، ثم تبلورت الحركـــة الوطنية بعد ذلك حتى اضطرت فرنسا إلى الجلاء عن تونـــس والاعـــتراف باستقلالها فى ١٧ مايو ١٩٥٦ •

## نظام الحكم العثمانى فى تونس :

تمت أول محاولة لتنظيم إدارة تونس على يد "سنان باشا" عقب فتحـــها عام ١٥٧٤م ، وكان قاعدة هذه التنظيمات هو الجيش الإنكشارى • فقد ترك سنان باشا أربعة آلاف جندى إنكشارى فى تونس لحمايتها ، وأسند حكمـــها إلى باشا تابع للجزائر بلقب أمير الأمراء • وكان "حيدر باشـــا" أول أمـــير لأمراء تونس وكان يسانده ديوان للمشورة • كما اســـتحدث "ســـنان باشــا"

منصب أمير اللواء بهدف حفظ الأمن ، وعين قاضيا للأحكام الشرعية ، كما عين جابيا يلقب بالباى ٠

وإلى جانب ذلك فقد قسمت تونس إلى ولايات ومناطق عسكرية عين على رأس كل منها ولاة عسكريون ٠ ولكن هذا النظام لم يستمر طويلا فسرعان ما سيطر الجند على الأمور ، وقاموا بذبح أعضاء الديوان وإنهاء حكم أمير الأمراء ، واستحداث نظام الدايات الذى استمر قائما فى تونس حتى عام ١٦٤٠م ، وبعدها استطاع أحد حكام الأقاليم وهو "مراد بك" أن يخضع حكومة الداى لنفوذه ويقوم بتأسيس "الأسرة المرادية" وأن يحصل على لقب باشا من الباب العالى ٠ وقد ظلت هذه الأسرة تحكم تونس حتى عام ١٧٠٢ حتى تمكن "حسين على" أحد ضباط الإنكشارية من القضاء على هذه الأسرة ، وتأسيس "الأسرة الحسينية" التى بدأ حكمها فى عام ١٧٠٥ واستمر حتى عاصر مرحلة الاحتلال الفرنسى لتونس ، ومما يذكر لهذه الأسرة أنها حافظت على الطابع العثمانى فى الحكم ، من حيث الاعتماد على طبقة الإنكشارية ، واتخاذ المذهب الحنفى مذهبا رسميا بدلا من النظام المالكى الذى يتبعه معظم الأهالى ٠

وعن موارد الدخل فى تونس وطرق الصرف منها ، فلم تفرض الدولة العثمانية على تونس أموالا تدفع لخزينتها كما كان يحدث مع باقى الولايات ، بل كان كل ما يفرض عليها هو إرسال كمية من الزيت بقصد إنارة المسجد الكبير فى الجزائر ٠

وكانت الضرائب التى تجبى من الأهالى تستخدم فى الصرف على مصالح الولاية ، وعلى أوجه الإنشاء والتعمير والرواتب والمخصصات ، وتجهيز الحملات ٠

## مظاهر الحياة الاقتصادية فى تونس خلال الحكم العثمانى :

تمثلت هذه الحياة فيما يقوم به السكان من أعمال الزراعة والصناعة والتجارة وبصورة عامة يمكن القول أن تونس كانت تعتمد على الزراعة أكثر من غيرها من الولايات الأخرى خاصة وأن طبيعتها المناخية وتربتها الصالحة للزراعة قد ساعدت على ذلك . وقد ارتبطت الزراعة فى تونس بطبيعة ملكية الأرض وتقسيمها فكان هناك الأراضى الخصبة المحيطة بالمدن ، وكان هناك الأراضى التى تصادر من القبائل وتمنح لكبار الموظفين كما كان هناك الأراضى التابعة لقبائل معينة تمارس فيها نشاطها الزراعى والرعوى .

وكانت الحبوب والخضر والفواكة أهم منتجات تونس وقد ساهمت هذه المحاصيل بنصيب كبير فى حركة التجارة الداخلية والخارجية . فقد نشطت حركة التجارة بين الولايات المغربية وبعضها البعض .

وبالنسبة للصناعة فقد تميزت تونس بصناعة المنسوجات الحريرية والنقش على الرخام والجبس .

## مظاهر الحياة العلمية والثقافية فى تونس خلال الحكم العثمانى :

شهدت تونس خلال العصر العثمانى نفس المظاهر التعليمية والثقافية التى كانت موجودة قبله ، فقد تم الاهتمام بعلوم القرآن والفقه والسنه النبوية والأدب والنحو والصرف وكان لجامع الزيتونه اليد الطولى فى ذلك . كما شهدت هذه الفترة انتقال العلماء من منطقة لأخرى .

وكان نظام الكتاتيب النظام السائد خلال هذه الفترة وكان التلاميذ يتلقون فيه العلوم الدينية وأصول النحو واللغة العربية .

ر كان يطلق على الكتاب فى المناطق الحضرية كلمة مسيد " وهى تحريف لكلمة مسجد ، وكان يوجد ذلك "المسيد" قرب الجامع وأحيانا يكون

جزءا منه . ويوجد كل من المسجد والمسيد فى كل حى عند نهاية الشارع وتقاطع الطرق ، ويكون على مكان مرتفع نظرا لرفعه شأن القرآن الذى يتعلمه التلاميذ فيه .

وإلى جانب ذلك فقد أسس الحفصيون فى تونس العديد من المدارس التى ساعدت على إحياء المذهب المالكى .

ومن أبرز علماء تونس خلال هذه الفترة "الشيخ محمد بن أبى الفضل خروف الأنصارى التونسى" (ت٩٦٦هـ/١٥٥٨م) ومحمد بن سلامة خطيب جامع الزيتونة فى تونس (ت٩٩٣هـ/١٥٨٥م) .

## الفصل الرابع

## العثمانيون ومراكش

----

إن مراكش ذلك القطر العربى الإسلامى الذى يحرس الجناح العربى فى الغرب من الوطن العربى تسلمت زمام الحكم فيه أسرة شريفة هى الأسرة السعدية منذ أوائل القرن السادس عشر واستمرت تحكم حتى منتصف القرن السابع عشر ٠

وعلى الرغم من نجاح العثمانيين فى الاستيلاء على الجزائر وليبيا وتونس ، وبالرغم من موقع مراكش المهم عسكريا بالنسبة للعثمانيين خاصة وأن سواحلها تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى ، كما أنها تقترب من إسبانيا من ناحية بوغاز جبل طارق ٠ فقد ظل هذا الإقليم بمنأى عن السيطرة العثمانية التى حاولت إدماجه فى بقية أقاليمها كما حدث لبقية إقاليم العالم العربى ، ولكن مراكش استطاعت الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية ، ووقفت بإصرار ضد الأطماع التى هددتها سواء من جانب العثمانيين أو الإسبان لفترة طويلة وفيما يلى نعرض لأسباب ذلك ٠

فبعد أن تأسست دولة الأشراف السعديين فى مراكش على أنقاض الأسرة الوطاسية ، وتمكنت من تثبيت أقدامها هناك التمس "أبو حسون الوطاسى" مساعدة السلطان العثمانى "سليمان القانونى" الذى كان يدرك أهمية موقع مراكش ، ويرغب فى وحدة شمالى أفريقيا خلال الصراع المحتدم بين المسلمين والإسبان والبرتغاليين هناك مما يعطيه ثقلا عسكريا فى صراعه مع الإمبراطور الإسبانى "شارل الخامس"٠

ونتيجة لذلك أمر السلطان العثمانى بإعداد حملة لفتح مراكش بالتعاون مع "أبى حسون الوطاسى" . وقد تمكنت هذه الحملة من دخول فاس فى عام ١٥٥٤م وإعادة حكم الأسرة الوطاسية" على مراكش تحت السيادة العثمانية ، ولكن ذلك لم يستمر سوى بضعة أشهر حيث استطاع "محمد المهدى السعدى" استرداد فاس من العثمانيين .

ونتيجة لإصرار السعديين على عدم الانضواء للسيادة العثمانية أمر السلطان سليمان القانونى بإرسال حملة لاستعادة فتح مراكش ، وقد عهدت قيادة هذه الحملة إلى "صالح ريس" وكان من المتوقع أن تستقر الأمور للعثمانيين هناك خاصة وأن السلطان العثمانى سليمان القانونى كان يهدف إلى جمع الصف الإسلامى لتصفية الجيوب الصليبية فى مراكش وفى دخول الدولة السعدية فى تبعية الدولة العثمانية طوعا ، ولكن السعديين رفضوا الاعتراف بخلافه السلطان العثمانى على أساس أن العثمانيين ليسوا عربا وإنما هم أعاجم ، وبأن الشرافة فى مراكش يجب أن تكون لهم خاصة وأنهم يعتزون بنسبهم إلى الرسول وازداد تطلع الباب العالى إلى ضم المغرب الأقصى بعد التنافس على عرش السعديين بعد وفاة "عبد الله الغالب بالله السعدى" (فى رمضان ٩٨١هـ/ يناير ١٥٧٤) وتواجد بعض المطالبين بهذا العرش بالآستانة ، ولكن انشغال الدولة العثمانية بالاستعدادات لفتح قبرص ، ولجوء أعداء العثمانيين فى المغرب إلى سياسة التقرب من دول أوربا الغربية قد حال دون ذلك .

وبعد معركة وادى المخازن فى ٣٠ جمادى الأول ٩٨٦هـ/ ٤ أغسطس ١٥٧٨ التى انتصر فيها "عبد الملك السعدى" على القوات الإسبانية إعترفت الدولة العثمانية بسيادة السعديين على المغرب الأقصى ، وتوقفت عن فكرة التدخل المباشر فى المغرب ، كما حفظت الدولة السعدية للعثمانيين الود ، وتبادل الطرفان الرسائل التى تدل على حسن علاقات الجوار بينهما .

وقد حرص السعديون على مواصلة الجهاد البحرى ضد القـــوى الصليبيــة المتحالفة ضد المسلمين ، وكان استرداد المدن المغربية مـــن تلــك القــوى المعادية هى بداية حركة الجهاد التى رحب بها العثمانيون . فقد اتبع "أحمـــد المنصور" الذى حكم المغرب فى الفترة من ١٥٧٨-١٦٠٣ سياسة الجـــهاد الإسلامى لمواجهة تقدم البرتغاليين على الشواطئ الأفريقية ، وذلـــك بنشـــر الإسلام بين الأفارقه ومد نفوذ دولته من حوض نهر الســـنغال حتـــى نـــهر النيجر . وقد نشأت فى تلك الجهات حكومة تحتفظ بالولاء الإسمى لســـلطان المغرب استمرت حوالى قرنين من الزمان .

وقد حاول "أحمد المنصور" فى حركة الجهاد البحـــرى ضـــد القـــوى الأوربية المعادية أن يضرب القوى الأوربية ببعضها فحاول التحـــالف مـــع انجلترا وهولندا ضد إسبانيا ولكنه لم ينجح فى مسعاه وإن كان قد نجح فـــى عقد معاهدات معهما لتنظيم حركة الملاحة والتجارة .

واستمر الجهاد الإسلامى فى المغرب الأقصى فى عهد أسرة الأشـراف العلويين الذى بدأ عام ١٦٦٦ ضد القواعد الإسبانية والبرتغالية فى الأراضى المغربية فتم استرداد مدن "المهدية" و"العرانش" و"أصيلة" أواخر القرن السابع عشر واسترداد ميناء "طنجة" ومدينة "مزاغان" من يد البرتغاليين . وبالنسـبة للدول الأوربية التى لم تجاهر المسلمين العداء فعقد حكـــام المغـــرب معـــهم معاهدات تجارية، فقد تعاهد المولى محمد بن عبد الله - الذى استمر حكمـــه للمغرب من عام ١٧٥٧ إلى عام ١٧٩٣م - مع دول شـــمال أوربـــا ومـــع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٨٦ ، كما توســـط لـــدى حكـــام تونـــس وطرابلس الغرب حتى تمتنع سفنها عن مهاجمة ســـفن الولايـــات المتحـــدة واستمرت الأمور على ذلك حتى حدث الغزو الفرنسى للجزائـــر فـــى عـــام ١٨٣٠ وبرز التفوق البحرى الفرنسى فى الحوض الغربى للبحر المتوســـط مما دفع بأنصار الجهاد البحرى الإسلامى فى المغرب إلى الانزواء .

وانتهى الأمر بقيام انجلترا بعقد معاهدة مع الغرب فـــى عـــام ١٨٥٦ تضمنت نصوصها الحرص على تأمين الملاحـــة فـــى البحـــر المتوســـط ، والقضاء على عمليات الجهاد البحرى المغربى التى كانت تتركز نشاطها عند سواحل الريف . وزاد الأمر سوءا نجاح البحرية الإسبانية فى القضاء علـــى السفن المغربية ، والاستيلاء على مدينة تطوان . ومنذ ذلك الوقت تزايـــدت الأطماع الأوربية فى المغرب حتى تم احتلال فرنسا لها فى عام ١٩١٢ .

## الخاتمـــــة

----

مما سبق يتضح أن الحكم العثمانى لأقطار شمال أفريقيا الثلاثة الجزائر - طرابلس الغرب - تونس لم يكن كله إيجابيا ولا كان كلـــه سـلبيا ، فقـد استفادت هذه البلاد من الحكم العثمانى خلال مواجهتــها للخطــر الإســبانى المتحالف مع فرسان القديس يوحنا فى مالطة ، واستفادت من تأخير الغــزو الإستعمارى الأوربى لها عندما كانت الدولة العثمانية قوية ، كما استفادت من بقاء الفكره القومية ومقوماتها فى النفوس خاصة وأن العثمانيين أبقوا أوضاع هذه البلاد كما هى ولم يقوموا بتتريكها ، كما حافظوا على النظام الاجتماعى بها ، بينما لم تستفد هذه البلاد حضاريا من الحكـــم العثمـــانى خاصـــة وأن العثمانيين لم يكن لديهم رصيد حضارى يقدموه للحياة العلمية فى الولايــــات العربية التى كانت تتمتع بحضارة تفوق ما لدى العثمـــانيين مـــن حضـــارة وبالنسبة لضعف نظام الإدارة فى هذه البلاد خلال الحكم العثمانى فقد كــــان لبعد المسافة التى تفصل بين تلك الولايات وعاصمة الدولة أكبر الأثـــر فـــى عدم إحكام الدولة لقبضتها الإدارية على هذه البلاد ، وفى عدم تمكنـــها مـــن حسم الصراع الذى كان كثيرا ما يحدث بين أفراد الأسر الحاكمة بل كـــانت تقوم بتسكين الأمور بدلا من حسمها .

وبالرغم من ذلك فقد اعتبر أهل شمال أفريقيا الدولة العثمانية بمثابـــة الإنقاذ الإلهى الذى جاء لمساندتهم فى مجابهة الإسبان وفرسان القديس يوحنا الذين قاموا بالإساءه لدينهم ووطنهم .

وبالنسبة لحركة الجهاد البحرى الإسلامى فقد أوضحت هذه الدراســـة أنها لم تكن حركة قرصنة كما يدعى البعض خاصة وأنها كانت تهدف للدفاع عن النفس ضد قوى صليبية هى فى حالة حرب معها ، وأنها كانت ردا على ما فعله الإسبان ضد مسلمى الأندلس ، وردا على ما فعله البرتغاليون ضـــد

البحرية الإسلامية فى أعقاب معركة ديو البحريـــة ١٥٠٩م والذيــن أثبتــوا خلالها روحهم العدائية لكل ما هو مسلم ومن هذا المنطلق كان لابد لاقطـــار المغرب العربى من اتخاذ الحذر والحيطة ، وإعلان الجهاد الإسلامى ضـــد أعداء الإسلام خاصة الإسبان ، والبرتغاليين ، وفرسان القديس يوحنا ، وكان لابد من دخول العثمانيين إلى هذه الحلبة لإعادة عملية التوازن بين المسـلمين والصليبيين . يضاف إلى ذلك أن الوجود العثمانى فى ولايات شمال أفريقيـا لم يكن وجودا عسكريا فحسب بل ترك ملامحه فى نظم الإدارة وأنماط حيـاة السكان وغيرها .

# ثبت المصادر والمراجع

---

فيما يلى أسماء بعض المصادر والمراجع التى استعنا بها فى وضع هذا الكتاب . نذكرها ليفيد منها من يرغب فى متابعة هذه الدراسة بشئ من التفصيل .

**أولا : العربية :**


- **أحمد عزت عبد الكريم** : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- **أحمد صدقى الدجانى** : ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالى أو طرابلس الغرب فى أواخر الحكم العثمانى الثانى ١٨٨٢-١٩١١ القاهرة ، ١٩٧١ .
- **ارجمند كوران** : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر - ترجمة عبد الجليل التميمى - تونس ، ١٩٧٤ .
- **خليفة التليسى** : حكاية مدينة ، طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب ، ليبيا ، طرابلس ١٩٧٤ .
- **رأفت الشيخ** : تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ١٩٩٤
- **عبد العزيز الشناوى** : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها حـ٢ القاهرة ١٩٨٠ .
- **عبد الكريم كريم** : المغرب فى عهد الدولة السعدية ، الرباط ، ١٩٧٧ .

عبد المنعم الجميعـى : العثمانيون فى الميزان الإسلامى والغربى ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

- محمد جميل بيهـم : أ- الحلقة المفقودة فى تاريخ العرب ، القاهرة ١٩٥٠ .

ب- فلسفة التاريخ العثمانى . كيف نشـأت وارتقت الدولة العثمانية ، بيروت ١٩٢٥ .

- محمد خير فـارس : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى ، بيروت ، ١٩٧٩ .

- مرفـت سـرداح : الجهاد العثمانى لإنقاذ بلاد المغرب العربـى ١٥١٨-١٥٧٨ رسالة ماجستير غير منشوره كلية البنات - جامعة عين شمس ، ٢٠٠٠ .

- نيقـولا زيـادة : ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاسـتقلال القاهرة، ١٩٥٨ .

ثانيا : الأجنبية :

- Gibb and Bowen : Islamic Society and the West. London 1960 .
- Show (S) : History of the the Ottaman Empire and Modern Turky, London 1977 .

— ٢ —

# موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية

دكتور عبد المنعم ابراهيم الدسوقى الجميعى
كلية التربية — جامعة القاهرة

**مقـــــدمة :**

وجدت الدولة العثمانية فى قيــام الثورة العرابية والنزاع المستمر بين الخديو والعرابيين فرصة للتدخل فى شـــئون مصر الداخليـــة بحجة فض النزاع واقرار الأمور ، ومع أن السلطان عبد الحميد الثانى وجد فى الثورة فرصـــة للانتقاص من مزايا الاستقلال الداخلى الذى حصلت عليه مصر فانه آثر التريث فى الانضمام الى اى من الطرفين ، ورغم أنه لم يكن مرتاحا للحركة الوطنيـــة المصرية لانه كان يخشى انتشـــار مفهوم الثورة منها الى باقى ولايات دولته نظرا لموقع مصر الجغرافى فى وسط ممتلكاته بالاضافة الى ان الثورة العرابية طرحت مفاهيم تستنكرها الدولة العثمانية كل الاستنكار مثل الدعوة الى النظام النيـــابى وفـــكرة توزيع الأرض على الفلاحين الا انه حاول اللعب على الطرفين والوقوف مع الجانب التى ترجح كفته فى النزاع فكانت هنـــاك اتصالات بين رسله وبين عرابى كما كانت هنـــاك اتصالات بينه وبين الخـــديو ، ورغم أن الخديو قـــد ارسل الى السلطان يطلب ارسال قوات تركية الى مصر للقضـــاء على الثورة فان السلطان خشى من رد فعل الدول الأوربيـــة خصوصا وان خبرة الـــدولة العثمانية فى الصـــدام مع الدول الأوربية منذ مؤتمر برلين جعلتها تتردد فى انتهاز هذه الفرصة .

ومن الطبيعى ان يكون حجر الزاوية بالنسبة لـكتابة هذا الموضوع

هو الوثائق التركية لذلك فقد رجعت الى الوثائق التركية المترجمة الى العربية والموجودة بدار الوثائق بالقلعة تحت عنوان ملف ثابت باشا المحفظتان ١٦٣ ، ١٦٤ عابدين ، ومحفظة ١١٦ ابحاث ، ودفتر ٢٨٧ عابدين بالاضافة الى محافظ الثورة العرابية وبعض المراجع الأخرى .

وملف ثابت باشا يحتوى على الكثير من الوثائق الخاصة بالثورة العرابية ووجهة نظر الدولة العثمانية تجاهها .

وثابت باشا كان يعمل مندوبا للخديو بالاستانة اثناء قيام الثورة العرابية وتذكره الوثائق بانه « تبوكتخدا الحضرة الخديوية بالاستانة » .

ومحور الموضوع الرئيسى يدور حول الرسائل المتبادلة بين الخديو والباب العالى والتى يتضح منها :

١ ــ موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية بعد مظاهرة عابدين وبعثة نظامى باشا .

٢ ــ موقف الدولة العثمانية من المؤامرة الجركسية .

٣ ــ بعثة درويش باشا حتى منشور السلطان باعلان عصيان احمد عرابى .

حاولت الدولة العثمانية استغلال احداث الثورة العرابية لتثبيت سيادتها على مصر والانتقاص من مزايا استقلالها الذى نالته فى عهد محمد على ثم فى عهد إسماعيل ، ومع ان الخديو توفيق قد ساعدها على أن تنتقص من هذه المزايا بطلبه ارسال قوات تركية الى مصر لاخماد الثورة العرابية وكان فى ذلك فرصة لها لتحقيق اغراضها الا انها لم تستغل هذه الفرصة فأثناء قيام مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ ارسل الخديو ثلاث برقيات الى الباب العالى تتضمن الحادث ولكن بصورة مختصرة من غير أن يوضح فيها الاسباب الحقيقية له والباعث عليه مكتفيا باسناد قيام الثورة الى ضابط برتبة « اميرالاى » (١) تمكن من استمالة الجيش المصرى اليه واحاط « بتعضيد من معظم ذلك الجيش بقصر عابدين . . وضرب الحصار حوله » (٢) وقد طلب الخديو « ارسال قوة عسكرية يبلغ مقدارها عشرين طابورا على جناح السرعة على أن

تكون قيادتها العامة منوطة به خاصة » (٣) ولما كان الباب العالى يخشى رد فعل الدول الأوربية وخصوصا انجلترا لو تدخل عسكريا فى مصر ، بالاضافة الى ان الخديو توفيق لم يكن منظورا اليه فى الاستانة بعين العطف والرضا (٤) فقد ارسل الباب العالى يطلب معلومات اكثر وضوحا عن الحادث حيث ذكر فى برقية له الى الخديو « وبما أنه ليس من المحتمل قط أن لا يكون لديكم انباء عن ظروف وملابسات تلك الثورة العسكرية قبيل اجتماع الجنود على الثورة والاحاطة بسموكم فى قصركم وتضييق الحصار عليه فضلا عن ان حكومتكم لابد لها من علم بالظروف والأحوال التى ساعدت على تكوين هذا الحادث .. فازاء ذلك لا يسع الباب العالى أن يقوم بأى سعى لاعادة الأمن الى نصابه وتسوية المسألة وفق الاعتبارات المحلية مالم يحصل أولا على المعلومات الوثيقة من سموكم لتجلو الأحوال جلاء تاما » (٥) .

وكان رد الخديو على هذه البرقية قوله : « ان الحكومة لم يكن عندها أى نبأ أو علم سابق بهذا الموضوع ، وكل ما هنالك اننا نعلم ان هناك صحيفة تدعى ( أبو النظارة الزرقاء ) يصدرها فى باريس باللغة العربية العامية رجل يدعى ( جمس ) (٦) له اتصال وثيق بطبيب عمى سمو عبد الحليم باشا وان آلاف من اعداد هذه الصحيفة تدخل مصر بطرق مختلفة ، وتوزع سرا ومجانا بين صفوف الجيش .. ولا يخفى على أحد ان الذى ينفق بسخاء على طبع ونشر هذه الصحيفة هو سمو عبد الحليم باشا لا غير وبما ان الدعايات التى تقوم بها هذه الصحيفة والأفكار التى تبثها تتفق تمام الاتفاق مع الأفكار السائدة الآن فى البيئات الناقمة والطبقات المتذمرة فى الجيش فيمكننا أن نقول ان لدعاية هذه الصحيفة دخلا كبيرا فى قيام هذه الفتنة العسكرية (٧) ثم ذكر ان الحادث انتهى من غير حاجة الى اتخاذ تدابير شديدة نحو ازالته(٨) ثم أكد فى برقية أخرى « ان الجيش الآن فى غاية الخضوع والطاعة وان سائر الأمور والشئون جارية على مايرام » (٩) ومع ذلك فان الحكومة التركية رأت فيما حدث ذريعة للتدخل السياسى فى شئون مصر وانتحال حق الاشراف عليها — على الرغم من محاولات انجلترا للتضييق على السلطان للاحالة دون ذلك (١٠) حتى يمكنها العمل منفردة فى مصر — فقررت ارسال

لجنة الى مصر للنظر فى الحوادث الأخيرة ، وقد عرفت هذه اللجنة بالوفد العثمانى وكانت برئاسة على نظامى باشا سرياور السلطان عبد الحميد وعلى بك فؤاد من اعضــاء مجلس شورى الدولة (١١) ونجل عالى باشا الصـــدر الأعظم المشهور ومعهما تدرى بك وصفر انـــدى وســيف الله افندى من ياوران السلطان .

يذكر الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتــابه « الثورة العرابيــة والإحتلال الانجليزى » أن هذا الوفــد تحرك من الآســتانة يوم ٢ أكتوبر ١٨٨١ قاصدا مصر ولم يسبق تأليفه مخابرة بين حكومة الآستانة والحكومة المصرية حتى تعرف المقصــد من ايفــاده (١٢) ولــكن الوثائق التركية تثبت أن الخــديو كان يعلم عن طريق مندوبه فى الآستانة (١٣) بتشكيل الوفــد والمهمة التى سيكلف بها (١٤) .

جاء الوفد الى الاسكنــدرية يوم الخميس ٦ أكتوبر ١٨٨١ ووصــل أعضــاؤه الى القــاهرة فى مساء ذلك اليوم ونزلوا ضيوفا على الحكومة المصرية وفى صبيحة الجمعــة ذهبوا الى سراى الاسماعيليــة لمقــابلة الخديو فاستقبلهم بالترحاب وابلغوه أن الغرض من حضورهم هو اظهــار الثقــة به وتثبيت مركزه (١٥) كما ذهب نظامى باشا الى ديوان الحربيــة بقصر النيل حيث استقبله محمود ســامى البارودى ناظر الجهادية وهناك القى خطــابا فى كبار الضباط حثهم فيه على طاعة الخديو (١٦) ورد عليه طلبه عصمت بخطاب اعلن فيــه خضوع الضــباط والجنود للســلطان والخــديو (١٧) .

ولمــا زار الوفــد العثمانى شيخ الجامع الأزهــر وبعض الشــيوخ وجدوا فى حديثهم اطراء على الجيش وأعمــاله (١٨) وظل رجال الوفــد العثمانى فى مصر بضــعة عشر يوما بين مقابلات وولائم ، وأجمعت كلمة من حادثوهم على أن البلاد ليس فيهــا أى اضطراب واكد لهم الخديو أن الجيش على طاعته وبذلك انتهت مهمتهم (١٩) وغادر الوفد القــاهرة الى الاسكندرية فى ١٨ أكتوبر ١٨٨١ (٢٠) .

والجدير بالذكر أن انجلترا وفرنســا اســتاءتا من حضــور الوفــد العثمانى الى مصر على غير اتفــاق معهما واعتبرتاه تدخلا فى شئون مصر

الداخلية وطلبتا من الحكومة العثمانية تقصير مدة اقامته (٢١) كما انتهز السير ادوارد مالت القنصل الانجليزى الفرصة لكى تبسط بلاده نفوذها على مصر فطلب من حكومته ارسال بارجة حربية الى مياه الاسكندرية فأجابته الى طلبه كما اتفقت مع الحكومة الفرنسية على ان ترسل هى الأخرى بارجة على أن تغادر البارجتان الاسكندرية حين مبارحة الوفد العثمانى مصر ، وفعلا حدث ذلك حيث غادرت البارجتان ميناء الاسكندرية فى ٢٠ اكتوبر ١٨٨١ أى غداة سفر الوفد العثمانى (٢٢) .

هذا عن موقف الدولة العثمانية تجاه الثورة العرابية عقب مظاهرة عابدين اما عن موقفها من المؤامرة الشركسية (٢٣) فانه بعد ان ارسل الخديو الى السلطان بخصوص هذا الموضوع وطلب منه ارشاده حول الاحكام القاسية التى اصدرها العرابيون ضد الشراكسة ويقترح عليه عدم تنفيذ الأحكام (٢٤) وقف السلطان مؤيدا لموقف الخديو وسر من ذلك سرورا بالغا وتمنى للخديو الخير وقال « انه طالما يظل الخديو مقيما على اخلاصه الذى اظهره للدولة العلية حتى الآن .. فانه سيجد الدولة العلية مساعدة ونصيره له على الدوام » (٢٥) .

ومع ان الأحوال فى مصر كانت غير مستقرة فانجلترا تمهد للتدخل العسكرى والخديو يشكو للسلطان من العرابيين ويطلب منه — عن طريق رسالة بعث بها الى ثابت باشا بالآستانة — ارسال قوات عسكرية تركية تقف أمامهم بقوله « وقد راح هؤلاء الضباط ( يقصد العرابيين ) يعملون للوصول الى اهدافهم بالتدريج كلما سنحت لهم الفرصة الى أن بلغوا حد السيطرة على جميع القوات العسكرية ، وهم الآن خارجون عن الطاعة كل الخروج وليس لهذا الوضع من علاج سوى اخذ هذه القوات العسكرية من أيديهم وردها الى القانون والنظام وهذا يحتاج الى قوة عسكرية تقف امامهم » (٢٦) ولكن السلطان تردد فى ارسال جنود عثمانيين الى مصر خشية الصدام مع الدول الأوربية كما ان معظم المشايخ بالآستانة اوضحوا للسلطان بأن « ارسال عساكر المسلمين لقتال اخوانهم المسلمين يضر بمقام الخلافة » (٢٧) يضاف الى ذلك أن السيد احمد اسعد وهو من الشيوخ المقربين من السلطنة كان قد مدح عرابى أمام السلطان (٢٨) وذكره بأنه الرجل الذى يرجى منه الخير لمصر .

ولمعالجة الموقف استقر رأى السلطان العثمانى على ارسال بعثة الى مصر بحجة اعادة الأمور فيها الى نصابها ، ومعالجة الأحوال على اساس الاستفادة من الخلاف بين الخديو والعرابيين ابتغاء تثبيت سلطة الدولة فى مصر (٢٩) وفى الثانى من شهر يونية ١٨٨٢ عين السلطان مصطفى درويش باشا احد رجال الحاشية السلطانية مندوبا عثمانيا ساميا وعهد اليه برئاسة وفد مكون كما تذكر الوثائق التركية من « نجله، وأربعة من الياوران وكاتبه الخاص ونحو تسعة من خدم المابين (٣٠) . ومجموع الذين سيأتون فى معيته حوالى ثلاثين نفرا ، وفوق ما تقدم سيكون فى رفقته حلمى بك مدير مكتب تلغراف المابين السلطانى ، وان الذين سيرافقونه من يعرف اللغة العربية » (٣١) وأمره بالسفر الى مصر، وكانت خطة الوفد أن يتظاهر درويش باشا بأنه جاء لتثبيت سلطة الخديو، وأن يتعامل اسعد باشا احد اعضاء الوفد مع عرابى ويوضح له رضى السلطان عنه (٣٢) .

وصل درويش باشا والوفد المرافق له الى الاسكندرية يوم الاربعاء الموافق ٧ يونية ١٨٨٢ على ظهر اليخت السلطانى عز الدين (٣٣) فأرسل الخديو وفدا برياسة على ذو الفقار باشا لاستقباله على ظهر اليخت كما ارسل عرابى من طرفه يعقوب سامى باشا وكيل نظارة الجهادية لاستقبال الوفد ، ولكن الخديو اعترض على ذلك وأبلغ محافظ الاسكندرية بعدم موافقته على اجراء أى شىء من رسوم الاستقبال من طرف العرابيين للبعثة ، ولكن يعقوب باشا لم يكترث بالأمر بحجة انه موفد من طرف ناظر الجهادية لا يمنعه عن ذلك سوى اوامر منه (٣٤) وفعلا تم استحضار ثلاثة قوارب احداها لوكيلى الجهادية والبحرية والثانى لمحافظ الاسكندرية والثالث لمندوبى المعية ، وساروا سويا ولكن قارب الوكيلين سبق القاربين الآخرين ووصل قبلهما بمدة ربع ساعة تقريبا وعند وصولهما استقبلهما دولتلو درويش باشا بأعظم قبول واختلى بسعادة يعقوب باشا وتحدث معهما مليا ، وبعدها وصل القاربان الآخران وكانت مقابلتهما اعتيادية، ولما ركب ذو الدولة درويش باشا فى الزورق المعد لركوبه استصحب معه سعادة يعقوب باشا وكيل الجهادية فقط وترك الآخرين (٣٥) .

وفى اليوم التالى سافر درويش ووفده الى القاهرة فجمع مأمور

الضبطية بها بعض الاهالى ومررهم بالطريق الذى يمر منه درويش باشا « فاخذوا يرفعون اصواتهم بمدح احمد عرابى وخفض شأن الخديو » (٣٦)

ولما ذهب درويش باشا الى سراى الاسماعيلية قابله الخديو بالترحاب (٣٧) ورد له الزيارة بسراى الجزيرة ، وهو المكان الذى اعد لاقامة الوفد (٣٨) كما حضر الى سراى الجزيرة بعض العلماء للترحيب بدرويش باشا وتحدث « الشيخ عليش والشيخ حسن العدوى وغيرهم من المنتمين الى عرابى عن مساوىء الخديو » (٣٩) .

لقد كانت خطة البعثة العثمانية التظاهر لكل من الخديو والعرابيين بأن السلطان معه ، وكان من مظاهر ذلك ان الوفد طلب نحو مائتى نيشان للضباط مكافاة لهم على اخلاصهم للسلطان كما طلب لعرابى النيشان المجيدى من الطبقة الأولى ، ولكن بعد أن منح الخديو درويش باشا رشوة قيمتها خمسون الف جنيه بالاضافة الى هدايا قيمتها خمسة وعشرون الف جنيه (٤٠) انضم درويش علانية الى الخديو وظهر ذلك فى محاولاته المتكررة للتخلص من عرابى فطلب اليه أن يسافر الى الاستانة لشكر السلطان على منحه الوسام (٤١) وأن يترك له ديوان الجهادية وقد فطن عرابى الى العواقب المترتبة على تركه ديوان الجهادية والسفر الى الاستانة فقال له « خذ عليك عهده حفظ الأرواح وانشر ذلك فى الجرائد العربية والتركية والأفرنجية وانا اتوجه الى الحضرة الملوكية » (٤٢) ولما تردد درويش باشا فى الأمر ذكر له عرابى بأن الأمة لا تسمح له بمغادرة البلاد (٤٣) وانه لايستطيع امام الأزمة الراهنة التى نشأت من جراء عدوان الانجليز الذهاب الى اى مكان وانه سيعبر عن عرفانه للسلطان بالجميل برقية (٤٤) .

ولما فشل درويش فى مبتغاه اعطى اوامر سرية لقبطان الباخرة التركية ( عز الدين ) التى اقلته الى مصر بالاستعداد للرحيل والاقلاع الى استنبول بمجرد صعود عرابى الى ظهرها ثم ذهب الى عرابى وأظهر له وده وطلب منه زيارة السفن المصرية الراسية فى الميناء وكذلك الباخرة التركية المذكورة ، ولكن عرابى أحس بالمؤامرة فذكر له انه ضابط مشاة ولا شأن له بالبحر ، وان من الأولى عدم اضاعة الوقت فى زيارة

السفن (٤٥) ولما احس رجال الثورة العرابية بميول درويش باشا العدائية تجاه الحركة الوطنيـــة ارسلوا عبد الله النديم الى الأزهر حيث عـــقد اجتماعا حضره حوالى أربعـــة آلاف شخص هاجم فيـــه البعثة التركية والخديو مما هز مركز درويش باشـــا ، واصر المجتمعون على رحيله ولو رفض يقبض عليه ويرحل بالقوة (٤٦) .

اما عن موقف اسعد باشا عضو الوفد العثمانى والمـــكلف بالتعامل مع عرابى فقد جمع توقيعات من الأهالى محررة ضـــد الخديو « ومختومة بألفى خاتم » (٤٧) .

استمر انحياز درويش باشا للخـــديو حتى بعـــد ضرب الاسكندرية ويتضح ذلك من رسالة بعث بها عرابى الى أحد أصـــدقاء السلطان يشكو من انحياز درويش باشا الى الخديو الذى انحـــاز الى الانجليز « مع انه كان من الواجب على دولته ذمة وديانه ان ينصح الخديو بأن يتوجها معـــاً الى العاصمة مقر الحكومة ليكونا خلف الجيش لا ان يتركا جيش الاسلام الشاهانى وينحازوا الى جيش العدو المحارب (٤٨) .

استمر طلب الخديو للجنود العثمانيين حتى بعد ضرب الاسكنـــدرية ويتضح ذلك من رسالة بعث بها الخديو الى ثابت باشا يقول فيها « وقد رفعت الى الحضرة السلطانية بوساطتكم كما كتبت المرة بعد المرة أصـــف الحالة وجميع متاصدى منصبه على رفع الأذى عن هذه البلاد السلطانية وتوطيد الأمن فيها . . . وهذا يتوقف على قدوم العساكر السلطانية (٤٩) .

ويهمنا هنا أن نذكر بأن كلا من بعثتى نظامى ودرويش لم تحضرا الى مصر بنيـــة خالصة بل حضرتا لاثبـــات سلطة تركيا فى مصر دون أن تعمل كلتاها اى عمل نافع لفض النزاع بين العرابيين والخـــديو او لانقاذ مصر من مطامع انجلترا (٥٠) بل تركتا مصر أشـــد ارتبـــاكا واكثر اضطرابا عما كانت عليه ، ويكفى ان نذكر انه لم يكد يمضى على حضور درويش باشـــا الى مصر بضعة ايام حتى وقعت مذبحة الاسكندرية فى ١١ يونية ١٨٨٢ ، وفى وجوده أيضا استمر الموقف فى التـــأزم وضربت الاسكنـــدرية بمدافع الأسطول الانجليزى وقـــد زاد موقف تركيا تجـــاه القضـــية المصرية تخبطا

امتناعها فى بادىء الأمر عن الاشـــتراك فى مؤتمر الآســتانة الذى عقد فى عاصمتها فى ١٥ يوليو ١٨٨٢ بغرض المحافظة على الأوضـــاع الحالية فى مصر وتأييد سلطة الخـــديو ، وكان امتنـــاعها مبنيـــا على أن هـــذه المسألة داخلية بحتة ليس للدول الأوربيـــة شـــأن بها كما كانت تعتقد أن ايفادها درويش باشا الى مصر سيحل المســألة المصرية وان التحقيقات التى سيجريها ستسوى الموقف مما يغنى عن عقد مؤتمر بشـــأنها ، ولمـــا أدركت خطأها اشتركت فى المؤتمر آخر الأمر ورضيت بارسال جيش عثمانى الى مصر وفوضت درويش باشا قيـــادة العســاكر العثمانية المقرر أرسالها الى مصر وابلغت الخديو بـــذلك (٥١) ولـــكن فات الأوان بضرب انجلترا للاسكندرية بمدافع الأســـطول وارسال قواتها لاحتلال مصر ، وبينما كان الانجليز يتقـــدمون فى داخل البلاد كانت المفـــاوضات مستمرة بين اللورد دفرين ســـفير انجلترا فى الآستانة والبـــاب العالى للاتفاق على خطـــة ارسال الجيش العثمانى الى مصر وكانت انجلترا تقصد من هذه المفاوضات اطالة الوقت وتعطيل ارسال جيش من تركيا حتى تقمع الثـــورة فلا يبقى سبب لمجىء ذلك الجيش (٥٢) وفى غضـــون ذلك استطاعت انجلترا تغيير ميزان المعركة ليس حربيـــا فقط بل سياسيا أيضا اذ استطاعت نتيجـــة للمحادثات المـــكثفة بينها وبين تركيا ، ونتيجة لجهود اللورد دفرين مندوبها فى الآســـتانة فى الضغط على السلطان (٥٣) فقد ربطت انجلترا موافقتهـــا على ارسال عساكر عثمانية باصـــدار منشور يتضـــمن أن عرابى عاص وثائر وان الدولة العثمانية ملتزمة بالمحافظة على الخـــديو وعلى نفـــوذه وامتيازاته (٥٤) وقـــد أصدر السلطان هذا المنشور مما قلب ميزان الحماس الشعبى وأضـــاع التـــأييد الاســـلامى والعـــربى للثورة (٥٥) وكان له اســـوأ الأثر فى النفوس وقـــد نشر هـــذا الاعلان فى جريدة الجوائب(٥٦) كما أرسلت نسخة منه الى عرابى (٥٧) .

استغلت انجلترا هـــذا المنشور فى اضـــعاف الروح المعنوية لدى العرابيين فبـــادرت القوات الانجليزية باذاعة اعلان السلطان بعصـــيان عرابى اثنـــاء زحفها مما ادى الى ايقـــاع الفرقـــة والانحلال فى صـــفوف العرابيين وانصراف النـــاس عن تأييد عرابى فى القتـــال وخصوصا بعد أن تمكن أعوان الخـــديو وعلى رأســـهم محمد ســـلطان باشا من توزيع

المنشور (٥٨) على الضباط والجنود الذين أحسوا بصدمة عنيفة بعد الاطلاع عليه مما أثر فى روحهم المعنوية وضعفت حميتهم الدينية وسهل على الانجليز دخول مصر (٥٩) .

هذا عن الموقف الرسمى للدولة العثمانية تجاه الثورة العرابية أما عن الموقف الشعبى داخل الآستانة — وخصوصا موقف رجال الدين — فكان فى معظمه بجانب عرابى فالشيخ على افندى مدرس السلطان والحائز على رتبة الصدر ( رتبة دينية ) كان يشيد بعرابى ويثنى عليه ويقول عنه أنه « رجل عظيم متدين » (٦٠) والشيخ نجيب أفندى الحائز على رتبة ( الصدر ) ايضا كان من مؤيدى عرابى والمدافعين عنه لدى السلطان (٦١) كما كان بعض خطباء المساجد بالآستانة يدعون لعرابى على المنابر .

ومما سبق يتضح ان موقف الدولة العثمانية الرسمى تجاه الثورة العرابية ابتداء من بعثة نظامى باشا وحتى اعلان السلطان منشوره بعصيان عرابى كان قائما على أهمية تثبيت السيادة التركية على مصر دون الاهتمام بمصالح مصر ومصيرها ؛ كما أن الدولة العثمانية حينما سنحت لها الفرصة بالتدخل المسلح فى مصر بعد استنجاد الخديو بها خشيت من رد فعل الدول الأوربية وخصوصا انجلترا ازاء ذلك ؛ ولما ترددت تركيا فى نجدة الخديو عسكريا وتباطأت فى اتخاذ مواقف محددة طلب الخديو من الانجليز المعونة وكان له ما أراد مما أتاح لانجلترا فرصة احتلال مصر .

## الحـــواشى

(١) دار الوثائق القومية : محافظ ابحاث ـ المحفظة ١١٦ دوسيه ٢ « الثورة العرابية » ترجمة الدفتر ٢٨٧ « البرقيات الواردة من استانبول والصادرة اليها أثناء الثورة العرابية ١٢٩٨ هـ ( ١٨٨١م ) » .

(٢) نفس المحفظة والدوسيه . برقية من الجناب العـالى الخديو الى الباب العالى بتاريخ ١٥ شوال ١٢٩٨ ( ٩ سبتمبر ١٨٨١ ) .

(٣) المصـدر نفسه .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتـلال الانجليزى ، القاهرة ـ النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٤٩ ص١٦٦ .

(٥) محافظ أبحاث ـ المحفظة ١١٦ « البرقيات الواردة من استانبول والصادرة اليها اثناء الثورة العرابية » .

(٦) يقصد جيمس سانوا ( يعقوب صنوع ) .

(٧) محافظ ابحاث ، المحفظة ١١٦ ترجمة الدفتر نمرة ٢٨٧ عابدين ـ البرقيات الواردة من استانبول والصادرة اليها أثناء الثورة العرابية ـ برقيـة من الجنـاب الخـديو الى البـاب العالى بتـاريخ ١٧ شـوال ١٢٩٨هـ ( ١١ سبتمبر ١٨٨١ ) .

(٨) البرقية السابقة الذكر .

(٩) دار الوثائق القومية . دفتر ٢٨٧ عابدين ـ صادر ٧ بتـاريخ ٧ ذى القعدة ١٢٩٨ ( ٣٠ سبتمبر ١٨٨١ ) .

(10) Public Record office, F. O. 407/18 No. 45 Earl Cranville to the Earl of Dufferin, September 18, 1881 Telegraphic No. 436.

(١١) الوقائع المصرية : العدد ١٢٢٩ فى ٨ اكتوبر ١٨٨١ .

(١٢) عبر الرحمن الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ١٦٥ .

(١٣) عمل ثابت باشا مندوبا للخديو بالاستانة أثنـاء قيـام الثورة العرابية واستمر هنـاك فى المـدة من شهر ذى الحجة ١٢٩٨ الى صفر ١٢٩٩ وبعد عودته شغل عدة مناصب منها مهردار خديو ثم عين فى نظارتى الداخلية والأوقاف وبعدها شغل منصب رئيس ديوان الخـديو ، انظر : دار المحفوظات العمومية : اوراق ربط معاش سعادة محمد ثابت باشا ـ دولاب ٢٧ عين ٤ محفظة ٥٧٤ دوسيه ١٧٢٠٠ .

**أصل الإدريسي ودعوته:**

أصل الأدارسة بلاد المغرب، وإنما جاءت قصة وصولهم إلى صبيا[*] فى أعقاب هجرتهم إلى مكة فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى أى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى حينما رحل السيد/ احمد الأدريسى[1] مؤسس الطريقة الادريسية[2] وصاحب المكانة الدينية المعروفة مع بعض أفراد أسرته من فاس بالمغرب إلى مكة المكرمة فى عام ١٢١٤ هـ/ ١٧٩٩م، واتخذها مقاما له حوالى ثلاثين عاما، وتتلمذ عليه فيها العديد من أعلام الاسلام نذكر منهم السيد/ السنوسى والسيد/ الميرغنى والشيخ الرشيدى وغيرهم.[3]

ونظرا لانشغال السيد/ احمد ادريسى بعلم الحديث وبمناظراته المتعددة لعلماء مكة وكبار رجال الدين بها علا شأنه، وبرزت شهرته العلمية ومكانته الدينية، واستحسن العديد من الناس مجالسه كما قام بعض أشراف القوم لمجالسته للتزود من علمه، والتفقه على يديه وكان من هؤلاء بعض أشراف "صبيا" و"أبو عريش" الذين دعوه لزيارة بلادهم التماسا لبركته على حد تصورهم، وانتفاعا بعلمه، هنا نجد الادريسى يستجيب لدعوتهم، ويؤسس فى بلادهم مركزا دينيا وفد إليه العلماء من كل صوب، كما وفد إليه العديد من أبناء عسير الراغبين فى التزود بالعلم.

والغريب ان دعوة ابن ادريس لقيت من اشراف وكبراء هذه المنطقة واهلها من الرعاية والتشجيع ما مكنها من الاستمرار، بالرغم من ان طريقته فى التصوف لا تتفق مع موقف امراء عسير المتشدد من الصوفية والمتصوفين والذين كانت بلدان تهامة ومنها صبيا تابعة لهم فى ذلك الوقت، والذين كان من ابرزهم على بن مجثل المغيدى الذى كانت تتبع له هذه البلدان فى العقد الخامس من القرن الثالث عشر الهجرى، وكان من أبرز المناصرين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى عسير والحريصين على نبذ البدع والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله الأمين.

وقد انتهز ابن مجثل فرصة مكاتبة بعض طلاب عسير الذين يتسمون بالغيرة الدينية يشكون له من شطحات ابن ادريس الصوفية فدعا إلى عقد مناظرة بين ابن ادريس الصوفى، وطلاب العلم العسيريين الشاكين منه والمتشبعين بالروح السلفية على ان تكون هذه المناظرة فى حضوره.

---

[*] شمال شرق جيزان على مسافة ٣٢ كم وجنوب أبها بحوالى مائتى وعشرة كيلو مترات.

[1] يرجع نسبه إلى الامام ادريس بن عبد الله المحض الحسينى بن فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وقد ولد فى العرائش من قرى فاس بالمغرب عام ١١٧٣هـ (١٧٥٩م) وأخذ علوم الشريعة من علماء المغرب ومن ابرزهم عبد الوهاب التازى والجندرى وغيرهما، وسلك طريقة الصوفية التى تعرف بالأحمدية نسبة إلى اسمه.
للتفاصيل انظر: نخبة من الأساتذة المصرين: معجم اعلام الفكر الانسانى، المجلد الأول، القاهرة- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م،ص ٤١ .

[2] هى احدى فروع الطريقة الشاذلية، وتعتبر الطريقة السنوسية فى ليبيا والطريقة الميرغنية فى السودان فرعين لها.

[3] المقطم: السنة الثانية والأربعون فى ١١ ديسمبر ١٩٣٠م.

وبالرغم من خشية ابن مجثل من انتشار الصوفية فى بلاده فقد تعاطف مع ابن ادريس وان لم يقره على طريقته الصوفية.[٤]

وظل الادريسى مقيما فى صبيا يتولى التدريس فى حلقته الصوفية حتى وافته المنية فى ١١ رجب ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م) بعد ان ترك لأولاده ثروة مادية ومعنوية هائلة خصوصا وان قبره الذى اعتبره الناس مزارا كان يدر عليهم الكثير من الأموال فقد حصل ابنه وحفيده على الثروة والمال من وراء أهمية هذا القبر[٥] بالنسبة للعامة من الناس.

والمعروف أن زيارة القبور للتبرك بالموتى لا تتفق مع تعاليم الاسلام الصحيحة، ولا مع المبادئ التى نادى بها الامام محمد بن عبد الوهاب والتى من بينها الابتعاد عن تقديس الأولياء أو جعلهم واسطة بين الله و عباده، ولكن نهاية الدولة السعودية المعروفة جعلت بعض الناس ينقلبون بانقلاب الأحوال، وعلى كل حال، فإنه نتيجة لترحيب أهالى صبيا بأبناء الادريسى وترغيبهم لهم فى الاقامة بينهم أقام أبناء السيد/ احمد الادريسى فى صبيا[٦] وتناسلوا بها، وعاشوا كأسرة يتمتع أفرادها باحترام الناس وتقديرهم[٧] إذ عاشت أسرته من بعده تتمتع بنفوذ وسلطان عريض يحفها الاجلال الدينى مما اكسبها مكانة خاصة، فقد كان الناس يسعون إلى بابهم أفواجا لتلقين الذكر والتزام الطاعة الواجبة والتوبة مما هم عليه والامتثال لما يقربهم من الله[٨]

**نشأة الإدارة الادريسية:**

وقد تولى الزعامة بعد السيد/ احمد الادريسى ابنه الأكبر السيد/ محمد الذى توفى فى عام ١٢٩٦هـ ثم ابنه السيد/ على الذى توفى فى عام ١٣٢٤هـ وكانت زعامة هؤلاء مجرد زعامة دينية تقوم على أساس الفتوى والوعظ ونشر التصوف.

ونظرا لما تعرض له أهالى المخلاف فى ذلك الوقت من مظالم على يد العثمانيين نتيجة لفساد الإدارة وانتشار الرشوة، وبعد البلاد عن سلطة الحكومة المركزية، ونتيجة ايضا لانقطاع الصلة بين الحاكم والمحكوم وترك مشاكل الأهالى بلا حلول خصوصا وأن اختلاف اللغة كان يعيق عملية التفاهم بين الحكام العثمانيين والأهالى كل هذا جعل الأهالى نافرين من الحكم العثمانى وثائرين عليه لدرجة أن تطاولت بعض القبائل على الحكومة العثمانية وعلى القوات العثمانية نفسها.

---

(٤) العرب: الجزء الخامس عدد ذو القعدة والحجة ١٤٠١هـ (يونيو واغسطس ١٩٨١م) تحت عنوان مناظرة احمد بن ادريس مع فقهاء عسير– تحقيق الدكتور عبد الله ابو داهش، صفحات ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ١٦٥.

(٥) Hogarth: Arabia. Oxford , 1922, P. 120.

(٦) سكن صبيا ثلاثة هم السيد / مصطفى والسيد/ السنوسى والسيد/ العربى وقد حافظ هؤلاء على سلالتهم فلم يتزوجوا من غير بيوت الأكفاء والأقران أما عبد المتعال فقد سافر إلى مصر، وتزوج هناك، واقام فى قرية الزينية قرب الاقصر، وقد ولد له عدة أولاد سافر بعضهم إلى بلاد المغرب وتزوجوا من بيت السنوسى وأقاموا فى القيروان.

للتفاصيل انظر: امين الريحانى، ملوك العرب، جـ١، بيروت، ١٩٥١، ص ٢٩٧.

(٧) جورج انطونيوس: يقظة العرب– ترجمة على حيدر الركابى، دمشق، مطبعة الترقى، ص ١٣٦.

(٨) الاهرام: العدد ٩٥٥٦ بتاريخ ٥ شعبان ١٣٢٧هـ (٢١ اغسطس ١٩٠٩م).

ونظرا لتدهور أحوال منطقة المخلاف الأمنية، وعدم استقرارها لضعف سيطرة الاتراك على ربوعها[9] عزم السيد/ محمد الأدريسى[10] أحد أحفاد السيد/ احمد الادريسى على أن يدعم مركز اسرته الروحى ويطالب لنفسه بنفوذ زمنى سياسى يستطيع من خلاله بناء بيت حاكم محرر من سيطرة الأتراك فاستغل ما كانت عليه الدولة من ضعف كما استغل استياء الأهالى من الحكم العثمانى، وبقى متحينا الفرص التى يتمكن بها من اثبات مكانته كزعيم على البلاد مستغلا فى ذلك ثقافته الواسعة وقدرته الادارية فبدأ يجذب الانظار إليه، ولما كانت القبائل فى حالة تنافر وصراع مستمر فيما بينها، رأى الادريسى ضرورة تواجد الوفاق فيما بينها، وتوحيد صفوفها لمواجهة العثمانيين.

وعندما قامت الحرب بين قبيلتى صبيا والجعافرة[11] فى عام ١٣٢٠هـ بذل جهوده فى اخماد الحرب بين هاتين القبيلتين عن طريق الصلح والتفويض، والاحتكام إلى الشريعة الاسلامية، ولما نجح فى ذلك برزت مكانته، وبدأت الأنظار تتجه إليه، وزادت شهرته بعد أن قبض على بعض الأشخاص المجرمين فى صبيا [illegible] الذين ضج الناس من أفعالهم ونفذ فيهم حكم الاعدام، كما قطع رؤوس ثلاثة أشخاص قصاصا، وأيدى أربعة عشر حدا من بندر جازان [12] هذا بالاضافة إلى انه عالج موضوع مسألة الدماء السابقة بين القبائل فأعلن اسقاط حقوق الأخذ بالثأر برضى جميع القبائل، وأزال ما بين الأهالى من تنافس وأحقاد، وخلصهم من جميع الضرائب واقتصر على أخذ الزكاة الشرعية منهم، كما أمر بأن يكف النساء عن الاختلاط بالرجال.

كل ذلك رفعه فى أعين الناس وقربهم إليه[13] خصوصا وأن الحكومة العثمانية كانت لا تهتم براحة الناس ولا بأمنهم، كما أنها كانت معزولة عن الأهالى، وصلتها بهم كانت مقصورة على جباية الضرائب والقيام ببعض المهام العسكرية، ومن هنا وجد الناس فى الأدريسى المنقذ والمخلص لهم مما يعانونه من فوضى واهمال، فبالغت العديد من القبائل فى تقديره كما بايعته قبائل صبيا والحسينى والمخلاف الشامى

---

[9] أوضح السيد/ محمد الادريسى ذلك فى خطاب مؤرخ ٩ رجب ١٣٣٧هـ/ يوليو ١٩٠٩م، كان قد أرسله إلى أحد أصدقائه بالقاهرة فقال "ان الفوضى كانت ضاربة أطنابها فى هذه البلاد عند وصوله إليها، وأن الانسان كان لا يأمن على حياته [illegible] وصل الحال إلى درجة أن الانسان لا يولع (يوقد) سراج بيته فى الليل مخافة من عدو مراقبة فيبصره على النور فيضربه بالرصاص".

الأهرام ، العدد ٩٥٥٦ فى ٥ شعبان ١٣٢٧هـ/ ٢١ اغسطس ١٩٠٩م، وايضا سيد مصطفى سالم: تكوين اليمن الحديث، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٣، ص ٨٢.

[10] ولد فى صبيا عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، وتعلم فى الأزهر بالقاهرة، وتتلمذ على يد السنوسيين بعض الوقت فى برقة، كما ذهب إلى السودان وأقام بدنقلة، وتزوج بابنه الشيخ هرون الطويل، شيخ الطريقة الأحمدية هناك قبل أن يستقر فى صبيا ويدير أمورها. [illegible]

Toynbee, Arnold J, Islamic World, Survey of International Affaris, Vol 1, London 1927, P. 276,

وأيضا ملوك العرب للريحانى، جـ١، ص ٢٩٨.

[11] اسم قبيلة معروفة من قبائل المنطقة تمتد مواطنها من جربية إلى المقاربة فى ساحل جازان.

انظر: عبد الرحمن البهكلى: نفح العود فى سيرة الشريف حمود- تحقيق: محمد العقيلى، الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٩٠

[12] اسماعيل بن محمد الوشلى التهامى: من تأريخ اليمن الحديث: (ذيل) نشر الثناء الحسن المنبئ ببعض حوادث الزمن من الغرائب الواقعة فى اليمن- تحقيق محمد الشعيبى. صنعاء، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ١٤٤.

[13] محمد بن احمد العقيلى: مذكرات سليمان شفيق باشا متصرف عسير، المملكة العربية السعودية، نادى أبها الأدبى، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص ٣٢.

والجعافرة اماما على المخلاف السليماني، أما القبائل التى لم تبايعه فقد أدخلها تحت نفوذه بالقوة، وأخذ البيعة من زعمائها، كما أخذ منها عددا من الرهائن ليضمن ولاء تلك القبائل له.

ونتيجة لذلك انتشرت صولة الادريسى إلى "جيزان" و "النضير" و"شدا" و"ضيعة بن غفلان" مما يلى "رازح" ثم إلى حدود "فلله" حيث ذهب إليها واحتلها على رأس حملة قبائلية[14]. يضاف إلى ذلك أن الادريسى استطاع أن ينشر دعوته خارج المخلاف حيث اعتنقت بعض قبائل صعدة تعاليمه[15] وبدأ يجمع من عشائرها عدة أفخاذ وبطون تحت لوائه.

وبعد أن استتب الأمر للأدريسى أحل الأمن فى هذه المناطق محل الفوضى والاضطراب، وعمل على تنظيم حياة البدو من النواحى القضائية والادارية والاقتصادية فوضع على رأس كل قبيلة من القبائل التابعة له قاضيا وأميرا من قبله بحيث يقوم الأول بالنظر فى شئون الأهالى، بينما يقوم الثانى بالنظر فى شئونهم الادارية والحربية ويجمع الزكاة، وقد أخذ على هؤلاء العهود والمواثيق على القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأحياء العلوم والمدارس وإقامة الشريعة اجراء الحدود.[16]

كما نظم الادريسى امور الموانى التابعة له فجعل فى كل ميناء جمركا[17] له عمال وموظفون من قبله لاستيفاء الرسوم الجمركية على الواردات والصادرات، وقد حرص الادريسى على أن تكون هذه الرسوم أقل مما كانت عليه خلال الحكم العثمانى لهذه المنطقة حتى يظهر للناس عدالته وتميزه عن العثمانيين وبالاضافة إلى ذلك كون الادريسى فى صبيا أول مجلس للحكم من اربعة اشخاص وأقام محكمة من خمسة أعضاء [18] وعين وكيلا له كان بمثابة "رئيس الحجاب" أو "الصدر الاعظم" كما عين امينا للمال كان دوره بمثابة دور وزير المالية فى الوقت الحالى [19] ولكن هل يعنى ذلك أن الأمور استقرت للادريسى تماما وأصبحت القبائل كلها طوع إرادته؟

الواقع أن الأحداث اثبتت عكس ذلك فبعض القبائل مثل قبائل بنى مروان وأشراف حرض كثيرا ما ثاروا على الأدراسة ورفضوا دفع الزكوات المقررة عليهم، وطردوا عمال الادريسى من بلادهم، والتجاوا أحيانا إلى صنعاء طلبا للحماية. ويؤكد ذلك قيام الادريسى بحملات تأديبية على هذه القبائل وردها إلى طاعته. [20]

---

[14] احمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م، ص ٢٧٣.
[15] السيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص ٨١.
[16] الوشلى: مصدر سابق، ص ١٩٣.
[17] هى موانى "ميدى" و "الشقيق" و "حبل" و"بركة" و "الغور".
[18] مبارك محمد الحرشنى: النظم الادارية والمالية فى تهامة عسير خلال الاشراف السعودى، جدة ١٤٠٥هـ، ص ٥٨.
[19] السيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص ١٥٧.
[20] الوشلى: مصدر سابق، ص ٧.

وبالرغم من علو شأن الادريسى فإن العثمانيين لم يهتموا بأمره فى بداية ظهوره، فقد اعتبروه احد رجال الدين المتصوفين الذين سرعان ما ينطفئ نجمهم خصوصا وانه ليس لأسرته نسب راسخ فى المنطقة التى يحكمها.

وعلى كل حال فلكى يؤكد الادريسى وجوده فى منطقة المخلاف ثار على الحامية التركية الموجودة فيها فى عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م وخاض حربا مريرة معها مستغلا فى ذلك نفوذه الدينى على الأهالى حتى استطاع أن يؤسس امارة مستقلة له. (٢١)

والسؤال الذى يطرح نفسه هو إذا كان الادارسة اغرابا عن هذه المنطقة وليس لهم فى أرجائها خؤولة أو عمومة أو عصبية توطد اقدامهم إذا تحزب الأمر ضدهم فكيف دانت لهم الأمور فى منطقة المخلاف السليمانى وعسير؟

الواقع أن النفوذ الدينى الذى كان يتمتع به أفراد هذه الأسرة هو كل ما يملكونه فى هذه البلاد فقد انجذبت إليهم قلوب الناس بعد أن ملئت البلاد ظلما والدليل على ذلك أنه كان يرد إلى السيد/ محمد الادريسى يوميا ما بين أربعة وخمسة آلاف شخص يصلون معه المغرب والعشاء ثم يستمعون إليه وهو يخاطبهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ويحثهم على اتباع قواعد الدين الصحيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى أن يمضى من الليل أكثره.

ولكى يؤكد الادارسة قدرتهم الدينية كانوا يظهرون امام الناس بأنهم من اصحاب الكرامات والمعجزات ومما يروى فى ذلك ما ذكره صاحب المخلاف السليمانى ان الادريسى كان يطلى وجهه بمادة الفوسفور، ويخرج على زواره ليلا ليبهرهم بتألق وجهه نتيجة للمادة الفسفورية التى يضعها عليها، وانه كان أحيانا يحضر سلكا كهربائيا يلفه على حبل يمده إلى من يصافحه فتهتز يده هزا شديدا فيظن المصافح أن الادريسى من الأولياء أصحاب الكرامات. (٢٢) وهذا ان صح لا يتفق مع تعاليم الاسلام الصحيحة ولا مع المبادئ التى نادت بها الدعوة السلفية بنبذ البدع والعدول عن الاعتقاد فى قدرة الأولياء على الاتيان بالأمور الخارقة للعادة.

ولما تعاظم أمر الادارسة حاولت الدولة العثمانية مواجهة الموقف معهم فأرسل إليهم السلطان محمد رشاد خان وفدا لمناصحتهم كان من بين أعضائه سليمان شفيق باشا متصرف عسير، وقد سار خلف هذا الوفد جيش كبير بقيادة سعيد باشا.

---

(٢١) مديحة درويش: العلاقات السعودية المصرية ١٩٢٤-١٩٣٦، رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٧٨م، مكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٥٥٦، ص ٣١٧.

(٢٢) محمد بن احمد العقيلي: تاريخ المخلاف السليماني، جـ١، الرياض، دار اليمامة، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٦٧٨

ولكى يؤكد الادريسى قوته أمام هذا الوفد وقدرته على مواجهة الأمور استدعى من القرى المجاورة لصبيا نحوا من اربعة آلاف رجل مسلحين[٢٣] لاستقبال اعضاء الوفد ظاهرا، وان كانت الحقيقة انه أراد ان يثبت امامهم أن لديه قوة قادرة على حمايته. وفى نفس الوقت استطاع الادريسى بما يتمتع به من ذكاء اخفاء نواياه فأوضح الوفد أنه "لا طمع له برياسة، وان القبائل اعتادت أن تلجأ إليه برضا منها لحل ما بينها من مشاكل، وانها تطلب منه أن يسعفها بالمرشدين لازالة ما بينها من ضغائن"[٢٤] . وأنه لا هدف له سوى اصلاح الادارة والمحافظة على الأمن، وأنه يعمل لاجل مصلحة الدولة دون أن تكون له مصلحة سوى ما يرجوه من ثواب الآخرة ولكن المأمورين يحرفون الكلام عن مواضعه، ولما سأله الوفد عما أجراه من القصاص بغير أمر السلطان قال "اجريناه بمقتضى التراضى عليه من الجانى أولياء المجنى عليه وللمصلحة العامة فى ذلك"[٢٥] فاقتنع الوفد بأقواله وأعرض عنه صفحا، وفوضه فى بعض المهام التى كانت سببا فى ازدياد نفوذه بين القبائل[٢٦] منها أن يرسل الادريسى إلى القبائل من المرشدين ما يحل مشاكلهم صلحا بشوط أن يصحبهم موظف من قبل متصرف عسير ومنها الغاء الضرائب المفروضة من جانب الحكومة العثمانية على أهالى المنطقة والاكتفاء بما يحصل منهم من زكاة شرعية[٢٧] وبذلك تمكن الادريسى من الحصول على اعتراف الحكومة العثمانية بهيمنته على المنطقة وتم سحب الفرقة العسكرية التى ارسلت من الاستانة إلى عسير وبعد أن نجح الادريسى فى توطيد مكانته فى المنطقة التى امتدت إلى البرك شمالا وإلى الموسم جنوبا عمد إلى تشكيل هيكل ادارى ثابت قوامه الوزراء والقضاة وقادة الجيش، فشكل وزارة من أربعة وزراء أولهم يحيى زكرى حكمى الذى كان بمثابة الوزير الأول الذى يرافق الادريسى فى كل جولاته، والثانى كان يحيى عوض باصهى الذى اختص بالشئون المالية فكان يشرف على كل ما يتعلق بالصادرات والواردات والثالث كان حمود بن سرداب الحازمى الذى اختص بالاتصال بالقبائل وفض المنازعات فيما بينها كما كان بمثابة المسئول عن اعداد الجيوش. اما الوزير الرابع فكان محمد طاهر رضوان الذى كان عليه قيادة الجيوش فى المعارك.

وإلى جانب ذلك أنشأ الادريسى محكمة شرعية فى صبيا وعين مديرا للشرطة، ومحتسب لمراقبة الاسواق والحفاظ على الاخلاقيات والقيم والحث على أداء الصلاة فى أوقاتها. [٢٨]

---

[٢٣]محمد بن احمد العقيلى: مذكرات سليمان شفيق باشا، ص ٣٨.
[٢٤]نفسه.
[٢٥]الوشلى: مصدر سابق، ص ٨٩.
[٢٦]المقتطف: الجزء الخامس من المجلد الثانى والثمانين بتاريخ أول مايو ١٩٣٣.مقال للاستاذ فؤاد حمزة تحت عنوان "اشراف بلاد العرب- اشراف ابو عريش وآل عائض والأدارسة"، ص ٥٤٧.
[٢٧]مبارك الحرشنى: مرجع سابق، ص ٥٩.
[٢٨]نفسه، ص ٦٠-٦١.

والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل تم ازالة الخلاف بين الادريسى والدولة العثمانية بعد هذه المقابلة؟ الواقع أن سليمان باشا متصرف عسير ظل يشكو فى مذكراته مر الشكوى من لجوء الادريسى لكافة الطرق لتقوية نفوذه على حساب الدولة العثمانية، ومن ذلك أنه كان يرسل رجاله إلى القبائل دون علمه ومنها رفضه تسليم الفارين من وجه العثمانيين إلى صبيا بحجة أن تسليم الدخيل ليس من عادات العرب، ومنها دعوته إلى رجال القبائل بعصيان الحكومة والتمرد عليها.

ونظرا لفقدان الثقة بين الطرفين أخذ الادريسى أهبته للزحف على أبها مركز القيادة التركية فى ذلك الوقت، وقاعدة المتصرفية فأرسل بمنشوراته إلى القبائل يدعو فيها كل قبيلة إلى الزحف على أبها[٢٩] فى عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م وشدد الادريسى الحصار على أبها، ولكن متصرفها العثمانى سليمان شفيق كمالى استطاع تحصين المدينة بإقامة الخنادق والسدود فى منافذ أبها الخارجية حتى أصبحت البلدة عبارة عن قلعة، ولما قامت قوات الادريسى بالهجوم على أبها لم تجد الأمر سهلا، فظلت تحاصر المدينة حوالى سبعة شهور أكل الجيش العثمانى خلالها الهرر والكلاب ونتيجة لتفاقم الموقف حاولت الدولة العثمانية التفاوض مع الادريسى فأرسلت بعض مندوبيها إليه، غير ان الادريسى اعرض عنهم ورفض مفاوضتهم.[٣٠] واستمرت قواته فى حصارها، حتى استطاعوا زحزحة العثمانيين عن بعض مواقعهم، ونتيجة لذلك ارسلت الدولة العثمانية حملة قوية لفك حصار أبها شارك فيها كل من شريف مكة الذى كانت له قرابة خؤولة فى عسير، فانخرط الأهالى فى سلك طاعته ولم يبق فى طاعة الادريسى سوى قبيلة زهران فى شمال عسير[٣١]، ونتيجة لذلك انسحب الادريسى إلى المرتفعات، وكله تصميم على استخلاص كل مناطق عسير من الأتراك أو اجبارهم على الاقل على الاعتراف بوضعه فيها.

**تحالف الادريسى مع ايطاليا وبريطانيا ضد الدولة العثمانية:**

وبعد اعلان الحرب بين ايطاليا والحكومة العثمانية عام ١٣٢٩هـ،١٩١١م بسبب الأطماع الايطالية فى ليبيا استغل الادريسى الموقف لصالحه، ونجح فى تشديد قبضته على المناطق التى تحت سيطرته كما اتفق مع الحكومة الإيطالية على ان يقف بجانبها ضد العثمانيين فى نظير أن تمده بما يحتاج إليه من المال والذخيرة والعتاد، هذا فى الوقت الذى كان يجب عليه مساندة السنوسيين المسلمين فى ليبيا خصوصا وأن جده كان على اتصال بهم، كما أنه تتلمذ على يديهم بعض الوقت يضاف إلى ذلك أنه فى الوقت الذى انتاب فيه العالم الاسلامى موجه من الحماس لمساندة لمقاومة الليبية ضد العدوان الإيطالى البشع الذى هدد وجود

---

[٢٩] مذكرات سليمان شفيق، ص ٦٤.
[٣٠] نفسه، ص ٦٩.
[٣١] اسماعيل الوشلى: مصدر سابق، ص ٩٥.

الاسلام ذاته فان الادريسى استعان بالاسطول الايطالى لطعن الدولة العثمانية خلال محنتها. كل ذلك يجعلنا نتساءل عن الأسباب التى دفعت الادريسى إلى ذلك.

الواقع ان الادريسى كان يحاول تثبيت أركان حكمه فى المناطق التى يحكمها، ولما كان ذلك لا يستمر الا بمساندة قوى خارجية فقد استعان بالايطاليين لتحقيق طموحاته دون أن يفطن لمخاطرهم واستطاع بدعم منهم ان يستحوذ على ميناؤى جيزان وميدى [٣٢] ولما استنفذت اغراض الايطاليين معه تخلوا عنه مما جعله ينتقل إلى الانجليز، فعقد علاقات صداقة مع الحكومة البريطانية وكان أول حاكم عربى يتحالف مع الانجليز صراحة وأول من حمل السلاح ضد الدولة العثمانية[٣٣] . كما أن السؤال المطروح هنا أيضا هو ما هى مصلحة كل من ايطاليا والانجليز فى التحالف مع الادريسى ومساندته؟

الواقع أن ايطاليا كانت تتطلع إلى فرض سيادتها على اليمن وعسير، وأحكام قبضتها على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر بعد أن استولت على اريتريا، يضاف إلى ذلك أن عداء كل من الادريسى وايطاليا للدولة العثمانية قد جمع بينهما، ومن هنا استفادت ايطاليا من ارتباطها بالادريسى فى زعزعة وأضعاف الموقف العثمانى فى المفاوضات التى جرت بين العثمانيين والايطاليين، وأدت إلى استيلاء ايطاليا رسميا على طرابلس الغرب. [٣٤]

أما عن انجلترا فقد ساندت الادريسى لاعتقادها بأنه سيكون سندا لها ضد العثمانيين فيمنعهم من استخدام موانى البحر الأحمر ويدعم مركزهم فى الجنوب.

وهنا يحق لنا ان نتساءل كيف يقف شخص مسلم متدين مثل الادريسى بجانب دولة أجنبية مثل ايطاليا سفكت دماء المسلمين فى ليبيا واستباحت اعراضهم فى الوقت الذى كان يجب عليه مؤازرة الدولة العثمانية التى كانت تقف فى موقف المدافع عن العالم الاسلامى؟

لقد برر الادريسى موقفه بأن الدولة العثمانية كانت كثيرا ما تنكث عهودها معه، فكثيرا ما اتفقوا معه ثم نقضوا عهودهم كلما واتتهم الفرصة، كما أوضح ان قلة تدين الأتراك جعل البدو ينفرون منهم[٣٥] هذا إلى جانب رغبته فى أن تكون عسير للعسيريين لا للعثمانيين ولا لغيرهم ومن هنا لجأ إلى الأجانب لتخليصه من الأتراك، وهذه الطريقة كثيرا ما كانت تمارسها الكيانات التى لا جذور لها ولا مقومات. [٣٦]

ويمكننا أن نضيف إلى جانب ما ذكره الادريسى انه بعد أن تولت جمعية الاتحاد والترقى الحكم فى الدولة العثمانية، بدأت حركة التتريك التى اساءت كثيرا إلى الولايات غير التركية التابعة للدولة، كما تزايد

---

(٣٢) مبارك الحرشنى: المرجع السابق، ص ٤٢.
(٣٣) أمين الريحانى: ملوك العرب، جـ١، ص ٢٩٨، وانظر أيضا:
Hurewitz: J.C: Diplomacy in the Near And Middle East, Vol2, P.12.
(٣٤) مبارك الحرشنى: مرجع سابق، ص ٤٢.
(٣٥) سيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص ١٠٠، ١٥٨.
(٣٦) نفس المرجع

اهمال شئون العرب، هذا بالاضافة إلى رفض العثمانيين الاعتراف بوضع الادريسى على النقيض مما فعلوا مع الامام يحيى الذى تصالحوا معه واعترفوا به يضاف إلى ذلك رغبتهم فى القضاء عليه كل ذلك دفعه إلى الانحياز للايطاليين ثم إلى الانجليز بعد ذلك. وإذا كان ذلك كذلك فهل كان الرأى العام الاسلامى فى منطقة المخلاف السليمانى وعسير راضيا عن انضمام الأدارسة للأجانب.

الواقع أن الرأى العام فى هذه المنطقة كان غير راض عن هذا التحالف بل كان متعاطفا مع العثمانيين بصفتهم مسلمين[٣٧]، ومن هنا حرص الأدريسى على عدم اظهار علاقته مع البريطانيين والايطاليين أمام مواطنيه حتى لا يتأثر مركزه الدينى لدى أتباعه نتيجة لاتصاله وتحالفه مع غير المسلمين.[٣٨] ولكن هذه الأمور تغيرت نتيجة لانضمام الدولة العثمانية الى المانيا التى كانت تحارب من أجل التوسع الاستعمارى.

وعلى كل حال فقد عظم شأن الادريسى بعد أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وايطاليا حيث أصبح لديه الكثير من الأسلحة والذخيرة خصوصا بعد أن اغرق الايطاليون بواخر خفر السواحل العثمانية، واستولوا على ما فيها من سلاح أعطوا الكثير منه للأدريسى. [٣٩].

وهنا أيضا نتساءل هل كانت كل قوات الادريسى من رجال المخلاف السليمانى أم أنه استعان بقوات أخرى؟

الواقع أنه بعد ان ثقل العبء على رجال قبائل المخلاف السليمانى رأى الادريسى تخفيف الضغط عنهم بالاستعانة بغيرهم من رجال القبائل الأخرى عن طريق اغداق الهدايا والأموال عليهم فنشط فى استمالة بعض قبائل عسير، ونجح فى ذلك إلى حد كبير لدرجة أنه "استقبل فى جيزان مائتى مندوب عن قبائل عسير"[٤٠]. يضاف إلى ذلك ان الادريسى تمكن من تجنيد قبائل "يام" و "حاشد"، و"بكيل" وعين لهم قائدين من رجال المخلاف هما منصور بن حمود أبو مسمار، وأحمد عبد الله المروانى، كما استعان الادريسى بجنود مرتزقة من الصومال شكل منهم حرسه الخاص لفترة، ولكن نظرا لعدم تآلفهم مع الأهالى قام بتوزيعهم على المراكز التابعة لها [٤١] وأناط بهم مهمة أعمال الشرطة والحراسة.

وظل الادريسى يعمل على تدعيم قواته فأعاد تحصين الموانى التى فى حوزته، ووضع فيها المدافع الكبيرة وساعده على ذلك سهولة اتصاله بالقوى المسيطرة على البحر الأحمر كايطاليا وبريطانيا كما كان

---

[٣٧]مبارك الحرشنى: مرجع سابق، ص ٤٢.

[٣٨]فاروق أباظة: عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦، ص ٦٢١.

[٣٩]سيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص ١٨٢.

[٤٠]فاروق أباظة: مرجع سابق، ٦٢٢.

[٤١]نفسه ، ص ٥٨٤.

يستعين من اسراه من العثمانيين، وخاصة ممن كانت لهم خبرة فى المدفعية لتدريب جنوده، ورفـــع كفايتـــهم الحربية.

**فشل المفاوضات بين الادريسى والدولة العثمانية:**

وظل موقف العداء مستحكما بين الادارسة والعثمانيين إلى أن اعلنت الدولة العثمانية عن رغبتها فـى المفاوضات مع الادريسى فقبل، وفتح باب المفاوضات معهم، ولكنها لم تسفر عن نتيجة إذ كان العثمـــانيون يرون الاعتراف بوضع الادريسى الخاص فى أمارته، وصرف مرتب شهرى له من الدولة فى مقابل ان يقدم الطاعة والولاء للامام يحيى وأن يتخلى عن تحالفه مع أعداء الدولة فى حين كان الادريسى يتمسك بالمطالب التالية:

١-الاستقلال الادارى التام لامارته، مع الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية.

٢-عدم تدخل الدولة العثمانية فى شئون موظفيه ورجاله.

٣-ان يكون علم الادارسة من الهلال والنجمة مع كلمة التوحيد من جهة وعبارة محمد رسول الله من الجهة الأخرى.

٤-ان يكون الجنود من أبناء المنطقة المحليين.

٥-ان يكون تنظيم الجمارك والمعاهدات التجارية من حق الادارسة.

٦-ان تطبق فى البلاد احكام الشريعة الاسلامية ، وتكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية فيها.

٧-ان تكون السكك الحديدية ومصلحة التلغراف وغيرها من المنافع العامة فى قبضـــة الادارســة وتابعــة لاشرافهم.

٨-أن يصدر بهذا الاتفاق فرمان سلطانى ترسله الاستانة إلى عسير على سفينة حربية وفى يد مندوب عال، ويقرأ فى احتفال عام يختار الادريسى مكانه. هذا إلى جانب بعض البنود الخاصة بالمســـائل الفرعيــة وغيرها.(٤٢)

**وعند تحليلنا لوجهتى نظر كل من الطرفين يتضح الآتى:**

- أن الجانب العثمانى لم يكن موفقا فى شرطه تقديم الأدريسى الطاعة للأمام يحيى خصوصا وهو يعلم مـا بين الطرفين من مشاكل وصراعات سياسية ومذهبية هذا إلى جانب أن الأدريسى خلال فترة المفاوضات كان نفوذه قد انتشر انتشارا هائلا وانتظمت احواله وتسلحت رجاله.

(٤٢) المنار: المجلد ١٦، جـ٦، ص ٤٧٠، وسيد مصطفى سالم، المرجع السابق، ص ١٨٥.

- أما عن شروط الادريسى فقد كانت قاسية ومن الصعوبة على الدولة العثمانية قبولها خصوصـــا وأنـــها كانت تخشى أن يظهر فى اطراف اركانها المترامية مئات مثل الادريسى يدعون بأنهم اصحاب حقوق فى بقعة ما من الدولة، لذلك كان من الطبيعى ان تفشل المفاوضات وتعود حالة العداء إلى ما كانت عليه.[٤٣]

ومع ذلك فإننا نقدر للادريسى موقفه فى اشتراطه ان تكون اللغة العربية هى لغة التعليم والقضـــاء والادارة فى الاتصالات مع الاستانة، وفى أن تكون أحكام الشريعة الاسلامية هى الأحكام المطبقة فى امارته، فقد كان الادريسى فى مطالبه هذه جسورا وموقفه يدعو إلى الاعجاب.

وعلى كل حال فانه نتيجة للصلح الذى تم بين العثمانيين والامام يحيى اهتز مركز الامام امام عامـــة اليمنيين فى الوقت الذى اشتد فيه نفوذ الادارسة فى منطقة المخلاف السليمانى وعسير، ويرجع ذلك إلـــى ان القبائل اليمنية التى كانت قد اتخذت من الحرب مهنة وعملا لم ترض عن هذا الصلح، والتفت حول الادريسى الذى استمر على عدائه للعثمانيين وواصل الحرب ضدهم يضاف إلى ذلك، ان بعض اتباع الامام خصوصـــا من افراد قبلية حاشد التى كانت يعتمد عليها الامام اعتمادا رئيسيا التفوا حول الادريسى وبايعوه واصبحوا من جملة عسكره. كل ذلك شجع الادريسى على اظهار العداء للعثمانيين ومواصلة الحرب ضدهم.[٤٤]

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى اقامت بريطانيا خطتها تجاه الدولة العثمانية على اساس التحالف مع اعدائها فى المنطقة. ومن هنا ركز الانجليز انظارهم على الادريسى مستغلين كراهيته للعثمانيين، فمـــع انه لم يكن فى استطاعته المشاركة فى مجهودات الحرب، ولم تكن له قيمة عسكرية الا فى نطـــاق حـــدوده المحلية فقد حاول الانجليز ضمه إلى صفوفهم خصوصا وانه كان يستطيع ان يشل حركة القوات العثمانيـــة نظرا لأنه يتحكم فى منطقة ساحلية هامة على ساحل البحر الأحمر يمكن عن طريقها وضع القوات العثمانيـــة المرابطة فى اليمن بين فكى كماشة أى بين عسير وعدن، كما أنه بامكانه ان يعطل المواصلات العثمانية بين الحجاز واليمن، وان يهدد العثمانيين إذا ما هاجموا عدن، هذا بالاضافة إلى تمكنه من منع العثمـــانيين مـــن استخدام سواحل البحر الأحمر كقواعد معادية ضد أساطيل الحلفاء فى جنوبى البحر الأحمر.[٤٥]

ومن هنا رحبت بريطانيا بالتفاوض مع الادريسى، ورحب الادريسى مـــن جانبـــه بالتفـــاوض مـــع بريطانيا توطئه للتحالف معهم لمحاربة الاتراك ونتيجة لذلك اصدرت الحكومة البريطانية اوامرها إلى المقيـــم السياسى البريطانى فى عدن تطالبه بسرعة العمل على عقد معاهدة صداقة مع الادريسى. ونتيجة لذلك دارت

---

[٤٣] نفسه.

[٤٤] فاروق أباظة: الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢-١٩١٨ بيروت، دار العودة، ١٩٧٩م، ص ٢٩٥.

[٤٥] سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس: البحر الاحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعـــاصرة ١٩٨٠، مقال للدكتور/ محمد السروجي تحت عنوان "موقف بريطانيا فى البحر الأحمر فى الحرب العالمية الأولى"، ص ٤٩٧، وأيضـــا جلال يحيى: الثورة العربية: القاهرة، دار المعرفة ١٩٥٩، ص ١٣٠.

المفاوضات بين الطرفين، حاول الادريسى خلالها الحصول على الاسلحة والاموال من بريطانيا، فى حين رغب الانجليز فى التحالف معه لمساندتهم ضد اى محاولة عدائية يقوم بها الامام يحى.(*)

وانتهت فى ٣٠ ابريل ١٩١٥ بمعاهدة يتضح منها معالم السياسة البريطانية فى منطقة البحر الأحمر خلال الحرب العالمية الأولى فقد كان جل هدفها محاربة النفوذ العثمانى المنافس لها فى هذه المنطقة.

وفيما يلى نستعرض ملخصا لأهم بنود المعاهدة:

١-ان الأهداف الرئيسية لهذه المعاهدة هى شن الحرب ضد العثمانيين وتعزيز ميثاق الصداقة بين السيد الادريسى ورجال قبائله وبريطانيا.

٢-يوافق السيد الادريسى ان يشن الهجوم ويحاول طرد العثمانيين من قواعدهم فى اليمن، وان يضايق القوات العثمانية فى اليمن باقصى قوته، ومن ثم يوسع رقعة امارته على حساب العثمانيين.

٣-ان هدف السيد الادريسى الأول ضد العثمانيين فحسب ولا يمس ما يثير الخصومة والعداء مع الامام يحيى الذى لم يمد يده فعلا للعثمانيين.

٤-تلتزم الحكومة البريطانية بحماية امارة السيد الادريسى ضد اى هجوم بحرى يشنه أى عدو لضمان الاستقلال بامارته، وتتعهد بريطانيا بان تتخذ جميع الوسائل الدبلوماسية للنظر فى المشاكل التى تنشأ بين السيد الادريسى والامام يحيى وبين أى منافس.

٥-ليست لدى حكومة بريطانيا اى رغبة فى توسيع حدودها فى غرب الجزيرة العربية ، ولكنها لا ترغب إلا ان ترى مختلف حكام العرب يعيشون معا فى سلام، كل فى نطاق امارته، ولكهم يحتفظون بصداقة الحكومة البريطانية.

٦-ان الحكومة كدليل منها على تقدير العمل الذى سيقوم به السيد الادريسى امدته بالمال والمعدات الحربية، وستستمر فى تقديم العون له فى الحرب طيلة مدة اشتراكها بقدر النشاط الذى يقوم به السيد الادريسى.

٧-انه فى الوقت الذى تفرض فيه بريطانيا الحصار على الملاحة فى جميع الموانى العثمانية فى البحر الأحمر منذ عدة اشهر فقد اعطت السيد الادريسى الحرية الكاملة فى الملاحة والتعامل التجارى بين موانئه وعدن، وان بريطانيا اذ تقدم هذا الامتياز رمزا للصداقة القائمة بينها تتعهد بأن هذا الامتياز سيستمر ولن يتعرض للتوقف.[٤٦]

وهكذا اتفقت بريطانيا مع الادريسى على محاربة العثمانيين واستنفاذ قوتهم، ومنعهم من استخدام الموانى اليمنية ضد مصالح بريطانيا فى مقابل أن تتعهد بريطانيا بمساعدته عسكريا وماديا حتى يستطيع

---

(*)Hurewitz, J.C. op.cit, vol 2 , p. 12.

(٤٦)محمد بن احمد العقيلى: تاريخ المخلاف السليمانى، ج٢، ص ٧٣٣-٧٣٤، نقلا عن جريدة عكاظ، العدد ٣ بتاريخ ١٩٧٩/١٢/٢٤.

المحافظة على بلاده كما تسمح لسفنه بالمرور فى البحر الأحمر والاتجار مع ميناء عدن[٤٧] ، وبموجب هذه المعاهدة امدت بريطانيا الادريسى بكميات كبيرة من الاسلحة والذخائر، ونظرا لأن الادارسة كانوا يفضلون استعمال الاسلحة التى كانت ايطاليا قد امدتهم بها من قبل لخبرتهم بها وقدرتهم على استعمالها[٤٨] فقد طالب الادريسى بريطانيا امداده بكميات من الذخيرة التى يمكن استخدامها بواسطة البنادق الايطالية مما اوقع الانجليز فى مأزق خصوصا بعد أن اعربت ايطاليا عن عدم قدرتها على توفير مثل هذه الذخيرة ولهذا قامت بريطانيا بالاتصالات اللازمة مع الحكومة الفرنسية لاجابة مطالب الادريسى وتزويده بالاسلحة والذخائر اللازمة لقواته. [٤٩]

ونتيجة لتسليح الادارسة بالذخائر المناسبة قاموا فى مايو ١٩١٥ بمهاجمة "اللحية" تحت قيادة مصطفى ابن عبد المتعال الادريسى الذى قسم جيشه إلى قسمين قسم برئاسة احمد الحازمى وتوجه بمحاذاة الساحل إلى ميناء اللحية، والقسم الأخر وكان يقوده الحسن بن احمد بن مسمار وتوجه إلى "دير حسين".

ونظرا لعدم قدرة جيش الادارسة على اقتحام ميناء اللحية قام الاسطول البريطانى بضرب هذا الميناء من البحر تأكيدا من بريطانيا لمساعدتها للادريسى [٥٠]، وبذلك تمكن الادارسة من الاستيلاء على ميناء اللحية واتخذوه مركزا لقيادتهم كما نجح الحسن بن مسمار فى الاستيلاء على "دير حسين" ولكن ذلك لم يستمر طويلا حيث ثارت حامية العثمانيين على الادريسى واستطاعوا التقدم إلى معسكر الادارسة فى "دير حسين" والاستيلاء على ما فيه من اسلحة وذخائر [٥١] كما استطاعوا الاستيلاء على معسكر "العطن" واستعادة ميناء "اللحية" مما دفع قائد الادارسة إلى الالتجاء للاسطول البريطانى الذى صب نيران مدافعه على ميناء اللحية للمرة الثانية فاضطر العثمانيون إلى إخلائها [٥٢].

ولكى تؤكد بريطانيا تحالفها مع الادريسى عقدت معه معاهدة ثانية فى ٢٢ يناير ١٩١٧م؛ جددت فيها المعاهدة السابقة، كما اعترفت له بالسيادة على تهامة حتى اللحية فى الجنوب، والقنفذة فى الشمال [٥٣] ، هذا بالأضافة إلى اعترافها باستيلاء الادريسى عن جزر فراسان[٥٤] من العثمانيين وبأنها اصبحت جزءا من ممتلكاته وتعهدت بحمايته من أى اعتداء خارجي، وتعهد هو بعدم اقامة علاقات سياسية او تجارية مع أى حكومة اجنبية قبل الرجوع إلى بريطانيا.

---

[٤٧] فاروق اباظة: مرجع سابق، ص ٥٨١، والمقتطف: المجلد التاسع والخمسون، ج٣، سبتمبر ١٩٢١، ص ٢٦٧، تحت عنوان "بريطانيا العظمى والعرب".

[٤٨] Jacob, H.F: Kings of Arbia . London, 1923, P. 176.

[٤٩] فاروق أباظة: مرجع سابق، ص ٦٢٤.

[٥٠] نفسه، ص ٥٨١.

[٥١] محمد بن احمد العقيلى: المصدر السابق، ص ٧٢٩.

[٥٢] نفسه، ٧٣٠.

[٥٣] بلده على بعد ٢٠٠ ميلا إلى جنوب جده.

[٥٤] تبعد عن جيزان ستين ميلا بحريا، طولها ١٠٠ كم وعرضها ٣٠ كم.

ومن هذه المعاهدة يتضح أن بريطانيا كانت تعتبر الادريسى حليفا لها ولم تعتبره اميرا خاضعا لحمايتها ويؤكد ذلك اعترافها باستقلاله فى جميع ممتلكاته[٥٥] وإلى جانب ذلك فمن الواضح ان الانجليز زادوا فى ارضاء الادريسى بحسم نقطة الخلاف الدائرة بينه وبين الشريف حسين شريف مكة بشأن قنفذة لصالحه خاصة وأن قوته تتمركز على الساحل وان مصالحه تتأثر مباشرة بقوة البحرية البريطانية فى البحر الأحمر.

وهكذا استفاد الادريسى من تحالفه مع الانجليز استفادة عسكرية واقتصادية كبيرة فحصل منهم على احدث الاسلحة والذخائر اللازمة لابعاد العثمانيين عن بلاده، كما استفادت بلاده اقتصاديا حيث تمتعت بنوع من الرخاء الاقتصادى، وذلك بفتح ابواب التجارة أمامها فقد ظلت موانيه مفتوحة فى وقت حوصرت فيه موانى اليمن مما مكنه من التحكم فى السلع التجارية واسعارها كما تخلص من الاختناق الاقتصادى الذى شعر به سكان المناطق المجاورة وكان ذلك خدمة هامة اتضح اثرها خلال الحرب إذ كانت موانيه هى الموانى الوحيدة المفتوحة فى وقت كان الحصار البريطانى البحرى للمناطق اليمنية يكاد يفتك بالحركة التجارية بها ويهدد بقيام المجاعات. [٥٦] وقد عبر عن ذلك احد شهود العيان بقوله "انقطعت البواخر البحرية وعظم الحرب، ودخلت سنة ١٣٣٣ هـ/١٩١٤م،واشتدت الحرب العظمى وامتنعت القطارات والبواخر البحرية واصاب الناس ضرر شديد بسبب ذلك". [٥٧]

ولقد كان من النتائج المترتبة على هذا الحصار عدم قدرة الامام يحيى على دفع المرتبات الشهرية للقبائل الموالية له، مما جعل العديد من رجالها يفضلون ترك خدمة الامام والانضمام إلى الادارسة ويؤكد ذلك ما ذكره الوشلى بأنه بعد أن جاءت هذه القبائل "إلى الامام وطلبوا منه تسليم مرتبهم الشهرى اعتذر لهم.. لانقطاع النازل البحرى بسبب المحاصرة.. فنزلوا إلى الادريسى ليكونوا من جملة عسكره ويصلوا إلى مقصودهم من الكفاية فاجتمع عنده منهم ما ينيف على عشرة آلاف مقاتل، فرتب لكل واحد منهم سبعة عشر ريالا شهريا.. وامرهم بالتوجه إلى اليمن لقتال الدولة العثمانية".[٥٨]

وعلى كل حال فبانتهاء الحرب العالمية الأولى انهار الحكم العثمانى تماما واشتد ساعد الادريسى حيث تم استسلام القوات العثمانية فى اليمن امام الانجليز، وقام البريطانيون بتسليم ميناء الحديدة- التى تعتبر بوابة صنعاء إلى العالم الخارجى. [٥٩]- إلى الادريسى فى عام ١٣٤٠هـ-١٩٢١م مما جعل صنعاء تنفصل عن البحر، وساعد على اشتداد النزاع المسلح بين اتباع الامام يحيى والادارسة. والسؤال الآن هو هل كان

---

[٥٥] فاروق اباظة: مرجع سابق، ص ٥٨٩.
[٥٦] سيد مصطفى سالم، مرجع سابق، ص ٢١٣.
[٥٧] عبد الواسع بن يحيى الواسعى: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن. القاهرة، الطبعة الثانية، ص ٣٢٩-٣٣٠.
[٥٨] الوشلى: مصدر سابق، ص ١٧٧.
[٥٩] جون بالدرى: العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن أبان الحكم التركى ١٩١٤-١٩١٩، ترجمة سيد مصطفى سالم، القاهرة، المطبعة الفنية، ص ١٣٤.

من حق بريطانيا تسليم ميناء الحديدة للادارسة، وهل استطاع الادارسة ادارة هذا الميناء كما ينبغى؟

الواقع ان البريطانيين وجدوا ان من مصلحتهم تسليم الحديدة للادريسى فى محاولة منهم للضغط على الامام يحيى حتى يقلل من تأييده للعثمانيين فسلموها له على كره من اهلها، كما ان ما فعلوه كان تدخلا ذريعا فى مسألة توزيع الأراضى والحدود بين الحكام المحليين المتنافسين مما أثار ثائره الامام يحيى[٦٠] لحرمـــان بلاده من منفذ طبيعى وضرورى لمناطق زراعة البن اليمنى، كما أنها منفذا طبيعيا لمدن تهامــــة الأخــرى والميناء الطبيعى لصنعاء الا ان الادريسى فشل فى ادارة هذا الميناء بعد أن ولى عليه ابن عمـــه مصطفـــى الادريسى الذى اشتاط الأهالى غضبا من تصرفاته خصوصا لفرضه المكوس الباهظة على التجارة، واستبداده بالسكان مما جعلهم يفضلون الهجرة إلى عدن على الرغم من ان الادارسة قاوموا هذه الهجرة، وقبضوا علـــى العديد من التجار المهاجرين [٦١] وقامت بأسرهم فى ميناء "ميدى"[٦٢]

وعلى كل حال فإنه نتيجة لهزيمة المانيا وحليفتها الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى فـــرض الحلفاء شروطهم على العثمانيين والتى كان منها اقتطاع البلاد العربية عنهم، وتقسيمها إلى عـــدة دويـــلات ونتيجة لذلك انسحب المتصرف العثمانى من عسير، وسلم ادارتها إلى آل عائض الذى نجح الادريســـى فـــى استمالتهم إليه، وضمهم تحت لوائه، فدخلت عسير تحت السيادة الادريسية نتيجة لاتفاقية صبيا، والتى اتفـــق بمقتضاها على ان تدخل عسير فى حماية الادارسة، وان يكون حسن بن عائض نائبا على امارة عسير مـــن قبل الدولة الادريسية على أن يرافقه في ادارة هذه الامارة مندوبا ساميا من قبل الادريســـى وهـــو ابراهيـــم الشوكانى فى مقابل ان يدفع الادارسة مبلغ خمسة آلاف ريال لآل عائض كمرتب شـــهرى لرؤســـاء قبـــائل عسير.

واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى نهاية عام ١٣٣٧هـ/١٩١٨م وبعدها بدأ حسن بن عـــائض يتمرد على سيادة الادارسة على بلاده، ويناوئ مندوبهم فى عسير، كما امتنع عن ارسال الزكاة المقررة على اهالى عسير إلى الادريسى، وامر بصرفها على رؤساء قبائل عسير كمقررات سنوية لهم، وبالرغم من ذلـــك فقد اتبع الادريسى سياسة الملاينة مع آل عائض فى اول الأمر خشية ان يفلت الزمام من يده ولما أصـــر آل عائض على معارضتهم للسيادة الادريسية، وتنصلهم من اتفاقية صبيا رأى محمد الادريسى استعمال سياســـة الضغط معهم حتى يغيروا من موقفهم فقطع المواصلات مع عسير، وحاصرها اقتصاديا ولما لم يجد فى ذلك نفعا تشجع آل عائض على الثورة ضدهم والخروج على طاعتهم، ونتيجة لذلك جهز الادريسى جيشا بقيـــادة حمود سرداب لدخول عسير واخضاعها بالقوة، ولما تقدم الجيش الادريسى فى مركز الشعبين بطريـــق وادى العوص والعقبة (الصماء) وجد رجال عسير فى انتظاره، وعلى أهبة الاستعداد، وحدثـــت معركـــة انتـــهت

---

[٦٠] فاروق أباظة: مرجع سابق، ص ٦٦٣.
[٦١] سيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص ٢٦٢. وفاروق اباظة: الحكم العثمانى لليمن، ص ٤١١.
[٦٢] Jacob , H.F : Kings of Arabia , P. 249.

بانتصار العسيريين، وتراجع الجيش الادريسى(٦٣) هذا فى الوقت الذى كان فيه امام اليمن قد بـدأ يتحـرش بالادارسة بعد استيلائهم على الحديدة خصوصا وانه احس بانقلاب موازين القوى فى غير صالحه، ففى حين كان يطمع فى توسيع رقعة مملكته بعد خروج الأتراك من بلاده، وذلك بالاستيلاء على اجزاء واسـعة مـن أملاك الادارسة او القضاء عليهم نهائيا وجد الانجليز يسلمون الادريسى ميناء الحديدة، ممـا أثـار ثائرتـه، وجعله يشعل نيران الحرب مع الادارسة.

وإلى جانب هذا وذاك كان الهاشميون يروجون دعايتهم السياسية فى منطقـة المخـلاف السـليمانى وعسير بهدف توطيد نفوذهم فيها والتخلص من نفوذ الادارسة(٦٤)، كما كان الشريف حسين يعد لترتيب قيـام ثورة عربية كبرى ضد العثمانيين مما جعل بريطانيا تحاول التوفيق بينه وبين الادريسى وخلال ذلك الوقـت العصيب بالنسبة للادارسة توفى السيد محمد الادريسى فى يوم الثلاثاء الثالث من شعبان ١٣٤١هـ/الموافـق أوائل عام ١٩٢٣م وقبل أن ننتقل إلى خلفاء الادريسى ينبغى لنا أن نذكر ان محمد الادريسى كـان وبحـق المؤسس الفعلى لامارة الادارسة فى منطقة المخلاف السليمانى.

لقد قال عنه البعض انه استعمل الفسفور والكهرباء بقصد اقناع الأهالى بولايته، واتهمـه البعـض الآخر بادعاء المهدية والوقوف بجانب اعداء الاسلام، ومع ذلك فلا يستطيع احد أن ينكر انه اسـتطاع بمـا يتمتع به من ذكاء وعلم وحنكة سياسية وقوة إرادة ان يحافظ على الأمن فى امارتـه ويوقـف المنازعـات المستمرة بين القبائل ويقنع الناس باتباع قواعد الدين، كما لا يستطيع احد ان ينكر انه وقف ضد العثمـانيين بعد أن رأى منهم عدم الاهتمام بالمصالح العربية والاسلامية ومحاولتهم اضفاء حركة التتريك على العـرب، وترك بلادهم تموج بالمظالم وتعجم بالفتن.

هذا عن رأينا فى دور السيد/ محمد الادريسى اما عن خلفائه فيمكننا القول أنه بعد وفـاة الادريسـى انعقدت البيعات الخاصة والعامة لولده "الأمير على" من اهل الحل والعقد بجهات صبيا وما والاهـا، ولكـن نظرا لصغر سن هذا الأمير، وقلة خبرته لم يستطع تسيير دفة الأمور فحدثت منازعات بينـه وبيـن وزراء والده الذين اصبح لا يطمئن اليهم، ويشك فى نواياهم كما قام عمه الحسن بمنازعته على ملك الادارسة، هـذا بالاضافة إلى مجاهرة ابن عم والده مصطفى الادريسى برغبته فى الاطاحة به حيث كان يرى انـه أولـى بتولى حكم الادارسة منه. (٦٥)

كل ذلك جعل الأمر يفلت من الأمير على وجعل امارة الادارسة تمر فى أدوار الاضطراب الداخلـى فقامت الحرب الأهلية بين أفراد هذه الأسرة فى عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م وكان من نتيجتـها تفكـك الامـارة

---

(٦٣)محمد بن احمد العقيلى: مرجع سابق، ج٢، ص ٧٣٨-٧٤٠.

(٦٤)خديجة احمد على: العلاقات اليمنية السعودية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٨٣، ص ٥١.

(٦٥)مبارك الحرشنى: مرجع سابق، ص ٦٢.

الادريسية، وتقسيمها إلى قسمين قسم تحت حكم الأمير على والأخر سيطر عليه عمه الذى جعل من مدينة الزيدية مقرا لملكه [٦٦] وقام بجمع الجيوش وتعبئتها للتخلص من ابن أخيه.

وفى محاولة لاصلاح ذات البين بين الطرفين قام احد السنوسيين بالوساطة، ونظراً لتمسك الأمير على برفض المصالحة فقد رأى السنوسى خلعه من الامامة واقامة عمه الحسن مكانه، وإزاء ذلك لم يجد الأمير على بدأ من ترك العاصمة صبيا والاتجاه إلى جيزان حيث جعل منها مقرا لاقامته، نظرا لوجود حامية عسكرية قوية تابعة له فى منطقة الحفاير، ونتيجة لذلك انتقل جهاز السلطة الحاكمة من صبيا إلى جيزان، وكاجراء وقائى له قام بعزل الكثيرين من مساعديه الذى عاونوا والده، وأخذ يستعين بعناصر جديدة من الموالين له بالرغم من قصور خبرتهم السياسية والادارية. [٦٧]

ونتيجة لاضطراب الأمور فى الامارة الادريسية بدأ الامام يحيى فى استغلال هذه الفرصة، فأخذ فى بسط سيطرته على الأراضى اليمنية التى كانت تحت حكم العثمانيين وان يحصر الادارسة فى الجزء الشمالى من عسير فقط ، كما أرسل قواته التى تزيد عن خمسين ألف مقاتل للاستيلاء على كل ما يقابلها من بلاد الادارسة ونتيجة لتدهور الأمور وعدم قدرة الأمير على مواجهة الموقف تم خلعه ومبايعة عمه الحسن اميرا على تهامة عسير فى عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م. وخلال ذلك الوقت كان الملك عبد العزيز آل سعود قد ارسل وفدا من قبله مؤلفا من ابن عسكر، ومحمد بن دليم ومصطفى النعمى، وعبد الرحمن ظافر النعمى، وعبد الوهاب ابو ملحة للاطلاع على حقائق الأمور، ومحاولة التوفيق بين افراد الاسرة الادريسية. [٦٨]

وما أن وصل الوفد إلى منطقة النزاع حتى كان الحسن الادريسى قد رجحت كفته وازاح ابن اخيه واجبره على التنازل له عن الامامة، والفرار إلى عدن.

ونظرا لاستمرار الامام يحيى فى توسعه داخل امارة الادارسة تحمل الحسن الادريسى عبء الكفاح، واخذ يستنهض الهمم لمقاومة القوات الغازية[٦٩] ولكنه لم يستطع فقد استولى الامام يحيى على معظم منطقة تهامة الجنوبية. وعندما رأى السيد/ الحسن الادريسى ان القوات اليمنية تزحف منتصرة على الادارسة لتلتهم ما تبقى من امارتهم عرض على الامام يحيى سحب القوات الغازية والاعتراف باستقلاله الداخلى على ان يعترف له بالسيادة على امارته، ولما رفض الامام يحيى ذلك واستمرت قواته فى مواصلة زحفها طلب الحسن الادريسى من الزعيم الاسلامى احمد الشريف السنوسى المشورة فأشار عليه "أن من الخير له ان يرتبط بمعاهدة صداقة وحماية مع آل سعود، فرجح الحسن ذلك وانتدبه لتلك المهمة فتوجه إلى الحجاز"[٧٠]

---

[٦٦] الوشلى: مصدر سابق، ص ٢٢٥، ٢٣٨.
[٦٧] مبارك الحرشنى: مرجع سابق، ص ٦٢-٦٣.
[٦٨] محمد بن احمد العقيلى: مرجع سابق، ج٢، ص ٧٦٠.
[٦٩] احمد طربين: الوحدة العربية ١٩١٦-١٩٤٥، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٩، ص ١٣٩، وايضا امين الريحانى: مرجع سابق، ج١، ص ٣٠٢.
[٧٠] محمد بن احمد العقيلى: مرجع سابق، ج٢، ص ٧٦٠.

كما توجه وفد آخر إلى الرياض صاحبة العلاقات التاريخية بالمخلاف وعسير للاتفاق حول تـأمين منطقـة المخلاف ضد الأطماع الموجهة إليها. [٧١]

**ضم الملك عبد العزيز امارة الادارسة إلى ملكه:**

وعلى أثر ذلك عقدت معاهدة مكة بين الملك عبد العزيز والسيد/ الحسن الادريسى فـى ١٤ ربيـع الثانى ١٣٤٥هـ الموافق ٢١ اكتوبر ١٩٢٦[٧٢] وبمقتضاها تنازل السيد/ الحسن عن ادارة كافة شئون امارته للملك عبد العزيز الذى نصبه حاكما عليها من قبله، وامر بتشكيل مجلس شورى لمساعدته ينتخب رجاله مـن اهل الحل والعقد على ان تكون الاحكام والحدود الصادرة منه طبقا للشرع الشريف. [٧٣]

وبمعونة الملك عبد العزيز اتخذ السيد/ الحسن بلدة ابو عريش عاصمة له يقوم فيها بـادارة شـئون امارته الداخلية فى حين يقوم الملك عبد العزيز بادارة شئون الامارة الخارجية ويضمن سلامة حدودها.

ولكى تتضح الامور امام الامام يحيى ارسل الملك عبد العزيز إليه نسخة من معاهدة مكة للتصديـق عليها، والكف عن مهاجمة امارة الادارسة التى أصبحت تحت حمايته، وكانت المفاجئة عنيفة بالنسبة للامـام فأما أن يقر المعاهدة ويعترف بها، واما أن يرفضها، ويصطدم بالقوات السعودية، وتكـون الأمـور غـير محمودة العواقب وقد جنح الامام يحيى إلى السلم فأجاب على رسالة الملك عبد العزيز ببرقية تتضمن الموافقة ثم امر قائده بايقاف الحرب مع الادارسة والاستجابة إلى دعوة الملك عبد العزيز إلى المؤتمر الاسلامى فـى مكة الذى انعقد فى عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م فأرسل وفدا إلى المؤتمر كانت مهمته التفـاوض بشـأن تحديـد الحدود بين البلدين الشقيقين، وعقد معاهدة تنظم العلاقة بينهما، وقد عاد الوفد يحمل مقترحات الاتفـاق إلـى الامام فلم تنل من جانبه قبولا، ونتيجة لذلك تعددت الرسل والوفود بين الرياض وصنعاء لتسـوية الأمـور، وسافر مندوبو البلدين إلى عسير لدراسة الموقف والاتفاق على حل نهائى[٧٤] وخلال ذلك تفاقمت الخلافـات بين الادارسة وازدادت المواقف سوءا فيما بينهم مما جعلهم يفضلون الانضمـام نـهائيا إلـى آل سعـود والانضواء تحت لوائهم فقعد اتفاق فى عام ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م تناول بموجبه السـيد/ الحسـن الادريسـى ومجلس شوراه عن ادارة كافة شئون امارته إلى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، وبموجب ذلك اصبحـت هذه المنطقة رسميا ضمن أجزاء المملكة العربية السعودية وانتهت سلطة الادارسة عليها.

وعندما نقلت اجهزة البرق هذا النبأ إلى العالم كانت هناك مباحثات دائرة فى روما بشأن المصـالح البريطانية والايطالية فىمنطقة البحر الأحمر وكانت ايطاليا تطالب بعسير، وقبل ان تتفق الدولتان على تقسيم

[٧١] Toynbee: Op.Cit, P. 323.

[٧٢] امين سعيد: تاريخ الدولة السعودية، ج٢، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ص ٩٥.

[٧٣] جورج انطونيوس: مرجع سابق، ص ٣٧٢، حافظ وهبه: مرجع سابق، ص ٢٨.

[٧٤] المقتطف: المجلد الرابع والثمانون، الجزء الخامس ١٩٣٤، مقال للاستاذ امين سعيد تحت عنوان "دولة اليمـن ودولـة آل سعود" بحث تاريخى فى نشأتهما وتطورهما، ص ٦٠٤.

منطقة البحر الأحمر كانت منطقة المخلاف السليماني وعسير قد دخلت ضمن السيادة السعودية. والسؤال الذى يطرح نفسه هو بماذا استقبل أهالى المنطقة انضمام امارتهم إلى آل سعود؟

الواقع أن الأهالى كانوا فى معظمهم من المعتنقين للمذهب السلفى الذى تأصلت جذوره فى نفوسهم، ومن هنا كانوا يحملون فى صميم قلوبهم اصدق الولاء والاكبار لآل سعود، يسيرن تحت لوائهم ودائما ما يلجئون إليهم فى حل مشاكلهم. [٧٥] وبالرغم من ذلك، ومع ان زعماء العديد من القبائل كانوا قد ارسلوا بتوقيعاتهم إلى الملك عبد العزيز بما يتضمن الموافقة على انضمام بلادهم إلى مملكته، وبالرغم من ان الحكومة السعودية كانت قد أمرت موظفيها بأن يلاحظوا منزلة السيد/ الحسن الادريسى ومكانته ويحافظوا على هيبته وكرامته هو وعائلته. [٧٦] فإن السيد/ الحسن لم يلبث أن حاول التخلى، عما اتفق عليه والانقضاض على الحكم السعودى فتقدم فى صيف ١٣٥١هـ/١٩٣٢م معلنا عصيانه، وتمكن من احتلال بلدتى "ابو عريش" و "جيزان" [٧٧] ولكن ذلك الموقف لم يستمر سوى ثلاثة ايام حيث وصلت الامدادات العسكرية السعودية ودارت معارك بين فلول الادارسة والقوات السعودية ، تمكنت فيها القوات السعودية من استعادة زمام الأمور، واستطاعت القضاء على الفتنة مما اضطر الادريسى إلى الفرار هو وعائلته إلى "حرض" طالبا اللجوء السياسى، فزين له الامام يحيى امكانية البقاء وأمر باقامته فى مركز "ذهب حجر" بمقاطعة حرض.

ونظرا لخطورة ذلك الموقف طلب الملك عبد العزيز من الامام يحيى اعادة الادارسة الفارين إليه عملا بالاتفاقات المعقودة بينهما[٧٨] وحفاظا على السلام بين البلدين، ومن أجل ذلك دارت عدة مفاوضات طلب خلالها الامام يحيى العفو عن الادارسة اللاجئين إليه. وعن كل ما حدث منهم حيث أنهم استجاروا به، وقد وافق الملك عبد لعزيز على طلب الامام يحيى حفاظا على حسن الجوار بين بلديهما فأرسل برقية إليه قال فيها : "إن جميع من التجأ إليكم له امان الله على ماله ودمه، وانه عفو شامل عن جميع ما مضى وحدث فى هذه الفتنة الشيطانية سواء فى حقوق الحكومة أو حقوق الاهلين وأن جميع من اعطيتموه الامان والمكان فهو تام على وجهه ما يحذرون شيئا سواء فى ذلك الحسن وآله وغيره من الرعية".[٧٩]

وقد أجاب الامام يحيى على برقية الملك عبد العزيز ببرقية طلب فيها أن يحرر للسيد/ الحسن عفوا وأمانا خاصا به وقد رد عليه الملك شاكرا له سعيه للاصلاح وقال: "انه يعطى امان الله وعهده للحسن ومن

---

[٧٥] احمد عبد الغفور عطار، صقر الجزيرة، ج٢، ص ٣٣٣.
[٧٦] المساء فى ١٩ رجب ١٣٤٩هـ (١٠ ديسمبر ١٩٣٠م) تحت عنوان "ابن السعود وعسير".
[٧٧] أحمد طربين: المرجع السابق، ص ١٤١.
[٧٨] كان معاهدة العرو الذى عقدت بين الجانبين السعودى واليمنى تقضى على الامام بتسليم الادارسة الفارين إليه.
[٧٩] المقتطف: مقال سابق ذكره، ص ٦٠٥.

تبعه على دمه وشرفه وان جميع ما فات منه لا يعاقب عليه، وانه سيكون اخا عزيزا له"[٨٠] بشرط ان يكـون هناك ضمانا بحسن تصرفاته. كما وافق الملك عبد العزيز على أن يدفع مرتبا شهريا للادريسى.

ونتيجة لتوسط الامام يحيى وافق الملك عبد العزيز على عقد مؤتمر فى "ميــدى" يحضــره الســيد/ الحسن ورجاله ومندوب من قبل الملك عبد العزيز ومندوب من قبل الامام يحيى لتسوية الأمور المتعلقة. وقد عقد هذا المؤتمر فى أواخر شوال ١٣٥١هـ/١٩٣٢م واستمر شهرين وانفض دون نتيجة.

وحرصا من الملك عبد العزيز على المحافظة على الأخوة الاسلامية بين مملكته ومملكة اليمن، وعدم اثارة مشاكل على الحدود بينهما طلب عقد معاهدة لتثبيت الحدود بين البلدين، وانتهى الأمر بعقــد معــاهدة الطائف فى ٦ صفر ١٣٥٣هـ (٢٠ مايو ١٩٣٤م) وفيها اعترف كل من البلدين باســتقلال البلــد الآخــر. وسيادته التامة على أراضيه، كما اتفق على تسليم الادارسة الفارين إلى اليمن للسلطات السعودية حيث تتــم اقامتهم فى مكة المكرمة.[٨١]

ونتيجة ذلك انتهت عملية التوتر القائمة بين البلدين، واصبحت منطقة المخلاف الســليمانى وعســير جزءا عزيزا فى جسد الوطن السعودى تتمتع مثل غيرها من اجزاء المملكة بما حباها الله بــه مــن الأمــن والعدل واليسر والرخاء، كما شملتها الاصلاحات والمشروعات العمرانية التى يشهد بها كــل مــن يــزور المنطقة الجنوبية من المملكة أو يطرق بابها.

---

[٨٠] المقتطف: مقال سابق.

[٨١] عن تفاصيل معاهدة الصداقة الاسلامية والاخاء العربى بين المملكة المتوكلية اليمنية والمملكة العربية السعودية فى ٢٠ مايو ١٩٣٤م، انظر:

محمد فؤاد شكرى وآخران: نصوص ووثائق فى التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، الانجلو المصريــة، ص ٤٨٨-٤٩٠.

# ثبت المصادر والمراجع

- أولا: وثائق منشورة:

-Hurewitr, J.C: Diplamacy in the Near and Middle East, 2 Vols , New York, 1956.

ثانيا: المصادر والمراجع العربية:


- احمد حسين شرف الدين: اليمن عبرالتاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشـــرين، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.
- احمد طربين: الوحدة العربية بين ١٩١٦-١٩٤٥، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٩.
- احمد عبد الغفور عطار. صقر الجزيرة، ج٢، جدة ١٣٨٤هـ.
- اسماعيل بن محمد الوشلى التهامى: من تأريخ اليمن الحديث: "ذيل" نشر الثناء الحسن المنبئ ببعـض حوادث الزمن من الغرائب الواقعة فى اليمن، تحقيق محمد الشـعيبى، صنعـاء، الطبعـة الأولـى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- امين الريحانى: ملوك العرب، جـ١، بيروت ١٩٥١م.
- امين سعيد: تاريخ الدولة السعودية، جـ٢، الرياض، دارة الملك عبد العزيز.
- جلال يحيى: الثورة العربية، القاهرة، دار المعرفة ١٩٥٩م.
- جورج انطونيوس: يقظة العرب، تعريب على حيدر الركابى، دمشق، مطبعة الترقى.
- جون بالدرى: العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن ابان الحكم التركى ١٩١٤-١٩١٩، ترجمة سيد مصطفى سالم، القاهرة، المطبعة الفنية د.ت.
- حافظ وهبة: جزيرة العرب فى القرن العشرين. القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م.
- خديجة احمد على: العلاقات اليمنية السعودية، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، مكتبـة كليـة الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، ١٩٨٣م.
- سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس: البحر الأحمر فى التـاريخ والسياسـة، القاهرة ١٩٨٠.
- سيد مصطفى سالم: تكوين اليمن الحديث، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٣.
- عبد الواسع بن يحيى الواسعى: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن، القاهرة، الطبعة الثانية.
- فاروق عثمان أباظة:

  (أ)الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢-١٩١٨م بيروت، دار العودة، ١٩٧٩.

(ب)عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨ ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦.

- مبارك محمد الحرشني: النظم الادارية والمالية في تهامة عسير خلال الاشراف السعودي، جدة، دار العلم، ١٤٠٥هـ.
- محمد بن احمد العقيلي:

(أ)تاريخ المخلاف السليماني، جزءان، الرياض، دار اليمامة، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(ب)مذكرات سليمان شفيق باشا متصرف عسير (تحقيق)، نادي أبها الأدبي، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٦م.

- محمد فؤاد شكري وآخران: نصوص ووثائق في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، الانجلو المصرية.
- مديحة درويش: العلاقات السعودية المصرية ١٩٢٤-١٩٣٦، رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٧٨م، مكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٥٥٦.
- نخبة من الأساتذة: معجم أعلام الفكر الانساني، المجلد الأول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.

**ثالثا: المراجع الأجنبية:**

- Hogarth: Arabia, Oxford 1922.
- Jacob, H.F. Kings of Arabia, London, 1923.
- Toynbee, Arnold J: Islamic world, Survey of International Affairs vol 1, London, 1927.

**رابعا: الدوريات:**

- الأهرام، اغسطس ١٩٠٩.
- العرب، يوليو - اغسطس ١٩٨٦.
- المساء، ديسمبر ١٩٣٠.
- المقتطف، سبتمبر ١٩٢١، مايو ١٩٣٣.
- المقطم، ديسمبر ١٩٣٠.
- المنار، المجلد ١٦.

# فهرست